{ الجزء الثالث }　　١٦١　　{ المجلد الحادي عشر }

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

{ مصر الجمعة ٣٠ ربيع الاول ١٣٢٦ — أول مايو (أيار) سنة ١٩٠٨ }

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٨ : ١١٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٩ : ١١٥) هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٢٠ : ١١٦) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

قال الاستاذ الامام ان الآيات السابقة من اول السورة كانت في الحجاج مع أهل الكتاب وكذا مع المشركين بالتبع والمناسبة وان هذه الآيات وما بعدها الى آخر السورة في بيان احوال المؤمنين ومعاملة بعضهم لبعض وارشادهم في أمرهم يعني ان أكثر الآيات السابقة واللاحقة في ذلك

ثم ذكر لبيان اتصال هذه الآيات بما قبلها ثلاث مقدمات (١) انه كان بين المؤمنين وغيرهم صلات كانت مدعاة الى الثقة بهم والإفضاء اليهم بالسر واطلاعهم على كل امر منها المحالفة والعهد ومنها النسب والمصاهرة ومنها الرضاعة (٢) ان الغرة من طباع المؤمن فانه يبني أمره على اليسر والامانة والصدق ولا يبحث عن العيوب ولذلك يظهر لغيره من العيوب وان كان بليدا مالا يظهر له هو وان كان ذكيا (٣) ان المناصبين للمؤمنين من اهل الكتاب والمشركين كان همهم الاكبر اطفاء نور الدعوة وابطال ماجاء به الاسلام وكان همّ المؤمنين الاكبر نشر الدعوة وتأييد الحق . فكان الهمان متباينين ، والقصدان متناقضين ، (ثم قال) فاذا كانت حالة الفريقين على ماذكر فهي لا شك مقتضية لان يفضي المنسب من المؤمنين الى نسيبه من اهل الكتاب والمشركين وكذا المحالف منهم لمحالفه من غيرهم بشيء مما في نفسه وان كان من أسرار الملة التي هي موضوع التباين والخلاف بينهم وفي ذلك تعريض مصلحة الملة للخبال . لذلك جعل الله تعالى للصلات بين المؤمنين وغيرهم حدا لا يتعدونه فقال

﴿ ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ﴾ الى آخر الآيات

« بطانة » الرجل وليجته وخاصته الذين يستنبطون أمره ويتولون سره مأخوذ من بطانة الثوب وهو الوجه الباطن منه كما يسمى الوجه الظاهر ظهارة . و « من دونكم » معناه من غيركم و « يألونكم » من الإلو وهو التقصير والضعف و« الخبال» في الاصل الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالأمراض التي تؤثر في المخ فيختل ادراك المصاب بها أي لا يقصرون ولا ينون في إفساد أمركم . والأصل في استعمال فعل « ألا » ان يقال فيه نحو « لا آلو في نصحك » وسمع مثل « لا آلوك نصحاً »

على معنى لا أمنعك نصحاً وهوما يسمونه التضمين. و« عنتم » من العنت وهو المشقة الشديدة و « البغضاء » شدة البغض

اما سبب النزول فقد أخرج ابن اسحاق وغيره عن ابن عباس قال « كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم هذه الآية » وأخرج عبد بن حميد انها نزلت في المنافقين . وروى ابن جرير القولين عن ابن عباس. وذكر الرازي وجهاً ثالثاً انها في الكافرين والمنافقين عامة قال « واما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية فانه ثبت في أصول الفقه ان أول الآية اذا كان عاماً وآخرها اذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها » وسيأتي عن ابن جرير ترجيح الأول

واما المعنى فهو نهي المؤمنين ان يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف على القول بأن قوله « لا يألونكم » الخ نعوت للبطانة هي قيود للنهي كذا على القول بأنه كلام مستأنف مسوق للتعليل فالمراد واحد وهو ان النهي خاص بمن كانوا في عداوة المؤمنين على ما ذكر وهو انهم لا يألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فهذا هو القيد الأول. والثاني قوله عز وجل « ودوا ما عنتم » أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة. والثالث والرابع قوله « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم . فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها و يعز عليهم اخفاؤها على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها . وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة في الاصلاح ممن يدعونهم اليه وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك اذ لم يكونوا على علم بطبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله بذلك ولذلك قال

﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ يعني بالآيات هنا العلامات الفارقة بين من يصح ان يتخذ بطانة ومن لا يصح ان يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته . أي

ان كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الاعداء والاولياء فاعتبروا بها ولا تتخذوا أولئك بطانة

وانت ترى ان هـذه الصفات التي وصف بها من نهى عن اتخاذهم بطانة لو فرض ان اتصف بها من هو موافق لك في الدين والجنس والنسب لما جاز لك ان تتخذه بطانة لك ان كنت تعقل فما أعدل هـذا القرآن الحكيم وما أعلى هـديه وأسمى إرشاده ؟ لقد خفي على بعض الناس هـذه التعليلات والقيود فظنوا أن النهي عن المخالف في الدين مطلقاً ولو جاء هذا النهي مطلقاً لما كان أمراً غريباً ونحن نعلم ان الكافرين كانوا إلباً على المؤمنين في أول ظهور الاسلام إذ نزلت هـذه الآيات لاسيما اليهود الذين نزلت فيهم على رأي المحققين . ولكن الآيات جاءت مقيدة بتلك القيود لان الله تعالى — وهو منزلها — يعلم ما يعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما وقع من هؤلاء اليهود فانهم بعد ان كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الاسلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الاندلس) وكذلك كان القبط عوناً للمسلمين على الروم في مصر فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الا بيد ؟ ألا إن هذا مما تنبذه الدراية ،ولا تروي غلته الرواية. فأن أرجح التفسير المأثور يؤيد ماقلنا .

قال ابن جرير يردعلى قتادة القائل بأن الآية في المنافقين و يؤيد رأيه الموافق لما اخترناه مانصه: «ان الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين ان يتخذوا بطانة ممن قدعرفوه بالغش للاسلام وأهله والبغضاء إما بأدلة ظاهرة دالة على ان ذلك من صفتهم . و إما باظهار الموصوفين بتلك العداوة والشنآن والمناصبة لهم فأما من لم يتأسوه معرفة انه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالته ومباطنته فغير جائز ان يكونوا نهوا عن مخالته ومصادقته الا بعد تعريفهم إياهم إما باعيانهم وأسمائهم و إما بصفات قد عرفوهم بها. واذا كان ذلك كذلك وكان إبدا المنافقين بألسنتهم مافي قلوبهم من بغضاء المؤمنين الى إخوانهم الكفار (أي كما قال قتادة) غير مدرك به المؤمنون معرفة ماهم عليه لهم مع إظهارهم الايمان بألسنتهم لهم والتودد اليهم كان بينا ان الذين نهى الله عن

اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم على ما وصفهم الله عز وجل به فعرفهم المؤمنون بالصفة التي نعتهم الله بها وأنهم هم الذين وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل الكتاب لأنهم لو كانوا المنافقين لكان الأمر منهم على ماينا ولوكانوا الكفار ممن ناصب المسلمين الحرب لم يكن المؤمنون متخذيهم لانفسهم بطانة من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم وافتراق أمصارهم ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب ايام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان له من رسول الله (ص) عهد وعقد من يهود بني إسرائيل » اه

فهذا شيخ المفسرين وأشهرهم يجعل هذا النهي فيمن ظهرت عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه ممن كان لهم عهد فخانوا فيه كبني النضير الذين حاولوا قتل النبي (ص) في اثناء ائتمانه لهم لمكان العهد والمحالفة ويمنع ان يكون مراداً به جميع الكافرين أو المنافقين

فهذا حكم من احكام الاسلام في المخالفين أيام كان جميع الناس حربا للمسلمين فهل ينكر أحد له مسكة من الانصاف انه في هذه القيود التي قيد بها يعد منتهى التساهل والتسامح مع المخالفين، إذ لم يمنع اتخاذ البطانة الاممن ظهرت عداوتهم و بغضاؤهم للمسلمين، فهم لا يقصرون في إفساد أمرهم ويتمنون لهم من الشر فوق ذلك . لو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل لكان وجه العدل فيها ازهر، وطريق العذر فيها أظهر، فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الاسرار ويستعان برأيهم وعلمهم على شؤون الدفاع عن الملة وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ؟ ؟

ما أشبه هذا النهي في قيوده بالنهي عن اتخاذ الكفار انصاراً وأولياء إذ قيد بقوله عز وجل (٦٠ : ٨ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ٩ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم

ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقد شرحنا هذا البحث في تفسير قوله تعالى (٣ : ٢٨ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله) (١)

هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب الى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعده على ذلك الى ان نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية الى العربية ٠ وبهذه السيرة وذلك الارشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في إناطة أعمال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الاجانب من النصارى ٠ ومع هذا كله يقول متعصبو اوربا ان الاسلام لا تساهل فيه !! « رمتني بدائها وانسلت » ألا ان التساهل قد خرج عند المسلمين عن حده حتى كتب الاستاذ الامام في ذلك مقالة في العروة الوثقى صدرها بالآية التي نفسرها نوردها هنا برمتها لانها تدخل في باب تفسير الآية والاعتبار بها على أكمل وجه وهذا نصها (نقلا من الجزء الثاني من تاريخه) :

* * *

« قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والاهب الوافرة والاسلحة الجيدة ٠ قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها٠ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون

(١) راجع ص ٢٧٦ وما بعدها من الجزء الثالث من التفسير

الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عما لا يليق بهم وغضاضة وألما موجعاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر ويوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.

«يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم : عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم. لا بد ان يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ويراعى ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطئ في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلاً وجعل له من هديه مرشداً واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجدلها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

«من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها. هذه فطرة فطر الله الناس عليها . ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فما تشهده كثيراً حتى بين العامة عند ما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة

فعلى ولي الأمر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المتنظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلاً من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل . هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ما عدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم و براءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي

تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

« نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة و يطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بصالح الملك اذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة و يضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لان صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينيــة أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها و يميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

« لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الاسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمر المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للاجانب عنهم بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعدما رأوا كثرة المطامع فيهاهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من اجيال بعيدة بعد ماعلمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير

بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة ،

« اما آن لامراء الشرق ان يدينوا لاحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم ان يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم ان يكفوا عن تخريب بيوتهم بايد يهم وايدي اعدائهم ، ألا أيها الامراء العظام مالكم وللأجانب عنكم ؟ «هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم ، ولم تبق ريبة في أمرهم «ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى ابناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوافيهم خير عون وأفضل نصير ، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس اجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا ؟؟ الى متى الى متى إنا لله وإنا اليه راجعون » اه

***

هذا بيان يريك بالحجج الاجتماعية الناهضة ان الغريب عن الملة لايتخذ بطانة للقائمين بأمر الملة ، والغريب عن الدولة لايتخذ بطانة لرجال الدولة ، وان لم يكن هؤلاء الغرباء متصفين بما ذكر في الآية من العدوان والبغضاء فكيف اذا كانوا كذلك

بينت لنا الآية التي فسرناها بعض حال اولئك الذين نهي المؤمنون عن اتخاذ البطانة منهم مع المؤمنين فدونك هذه الآية التي تبين حال المؤمنين معهم : ﴿ ها انتم اولاء تحبونهم ولايحبونكم ﴾ فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفا المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أثر الاسلام وهو انهم يحبون اشد الناس عداوة لهم الذين لايقصرون في افساد أمرهم وتمني عنتهم على ان بغضاءهم لهم ظاهرة وما خفي منها اكبر مما ظهر . اولئك المبغضون هم الذين قال الله فيهم اوفي طائفة منهم (٥ : ٨٢ لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) الخ يعني اولئك اليهود المجاورين لهم في الحجاز . أليس حب المؤمنين لاولئك اليهود الغادرين الكائدين واقرار القرآن اياهم على ذلك لانه اثر من آثار الاسلام في نفوسهم هو أقوى البراهين على ان هذا

الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح لا يمكن ان يصوب العقل نظره الى اعلى منه في ذلك؟ بلى ولكن وجد في الناس من ينكر عليه ذلك ويصفه بضده زورا وبهتانا، بل تعصبا خروا عليه صما وعميانا،

من هم الذين يرمون الاسلام بانه دين بغض وعدوان ؟ لا اقول انهم النصارى الذين كانوا أجدر بحبنا وودنا من اليهود لقوله تعالى في تتمة الآية التي استشهدنا بها آنفا (ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) بل هم قسوس اوروبا المتعصبون على الاسلام من حيث هو دين، وساستها المتعصبون على الاسلام من حيث هو شرع ونظام قامت به دول وممالك . فاوروبا التي تتهم الاسلام -- والشرق الأدنى كله لاجل الاسلام -- بالتعصب والبغضاء المخالف هي التي ابادت من بلادها كل مخالف لدينها الا الترك فانها لم تقو على ابادتهم حتى الآن ولولا ما بين دولها من التنازع السياسي لقضت عليهم . فنصارى الشرق ومسلموه وكذا وثنيوه إنما اغترفوا غرفة من بحر تعصب أوروبا ولكنهم لا قوة لهم على الدفاع عن انفسهم أمام اولئك المعتدين

أما قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فمعناه أنكم تؤمنون بجميع ما انزل الله من كتاب سواء منه ما نزل عليكم وما نزل عليهم فليس في نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الالهية او النبيين الذين جاؤا بها ما يحملكم على بغض اهل الكتاب فانتم تحبونهم بمقتضى ايمانكم هذا . وذكر بعضهم ان جملة « وتؤمنون » حالية من قوله « ولا يحبونكم » والمعنى انهم لا يحبونكم مع انكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم فكيف لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحق ببغضهم أي ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم

قال ابن جرير : « في هذه الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعني المؤمنين والكافرين ورحمة أهل الايمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الايمان، كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : قوله « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » فوالله ان المؤمن ليحب المنافق ويأوي اليه ويرحمه ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المنافق منه لأباد خضراءه » . حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني

حجاج عن ابن جريج قال « المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » اه

فهؤلاء أئمة التفسير من سلف الأمة يقولون إن المسلم خير للكافر والمنافق منهما له حباً ورحمة ومعاملة . وكذلك قالوا في السني مع المبتدع كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قالوا ان من علامة أهل السنة ان يرحموا المخالف لهم ولا يقطعوا أخوته في الدين . ولذلك يذكرون في كتب العقائد « لا نكفر أحداً من أهل القبلة » بل كان رواة الحديث من أئمة أهل السنة كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن يروون عن الشيعة والمعتزلة لا يلتفتون الى مذهب الراوي بل الى عدالته في نفسه .

ونتيجة هذا كله ان الانسان يكون في التساهل والمحبة والرحمة لإخوانه البشر على قدر تمسكه بالايمان الصحيح وقربه من الحق والصواب فيه . وكيف لا يكون كذلك والله يقول لخيار المؤمنين « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » فبهذا نحتج على من يزعم أن ديننا يغرينا ببغض المخالف لنا كما نحتج على بعض الجاهلين منا بدينهم الذين يطعنون ببعض علمائهم وفضلائهم ، لمخالفتهم إياهم في مذاهبهم وآرائهم ، أو في ظنونهم وأهوائهم ، والذين سرت اليهم عدوى المتعصبين ، فاستحلوا هضم حقوق المخالفين لهم في الدين ،

ثم قال تعالى شأنه مبينا الشأن طائفة منهم اسندها اليهم في الجملة على قاعدة تكافل الامة وكونها كشخص واحد ﴿واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الايمان للنبي (ص) والمؤمنين نفاقا وخداعا ومنهم من كان يظهره ثم يرجع عنه ليشكك المسلمين كما تقدم في آية (٧٢) من هذه السورة(*) واذا خلا بعضهم الى بعض اظهروا مافي نفوسهم من الغيظ والحقد الذي لا يستطيعون معه الى التشفي سبيلا . وعض الانامل كناية عن شدة الغيظ ويكنى به ايضا عن الندم ﴿ قل موتوا بغيظكم﴾ فان الاسلام الذي هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به الا عزة وقوة وانتشارا وقال ابن جرير « موتوا بغيظكم الذي على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف

*) راجع ص ٣٣٣ من الجزء الثالث من التفسير

جماعتهم» فليعتبر المسلمون اليوم بهذا لعلهم يتذكرون انه ما حل بهم ما حل من الأرزاء الا بزوال هذا الاجتماع والائتلاف و بالتفرق بعد الاعتصام ﴿ان الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما تضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك . ويعلم كذلك ما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم

ثم قال مبينا حسدهم وسوء طويتهم ﴿ ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ المس في الاصل كاللمس والمراد بتمسسكم هنا تصبكم ولعل اختيار لفظ المس في جانب الحسنة والاصابة في جانب السيئة للاشعار بان اولئك الكافرين يسوءهم ما يصيب المسلمين من خير وان قل بان كان لا يزيد على ما يمس باليد وانما يفرحون بالسيئة اذا اصابت المسلمين اصابة يشق احتمالها . هذا ما كان يتبادر الى فهمي ولكن رأيت صاحب الكشاف يجعلها هنا بمعنى واحد ويستدل باستعمال القرآن لكل منها في موضع الآخر ويقول ان المس مستعار للاصابة . ثم خطر لي ان اراجع تفسير أبي السعود فاذا هو يقول « وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة للايذان بان مدار مساءتهم ادنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة . وإما لأن اليأس مستعار لمعنى الاصابة » والاول هو الوجه وهو من دقائق البلاغة العليا . والحسنة المنفعة سواء كانت حسية او معنوية وأعظمها انتشار الاسلام ودخول الناس فيه وانتصار المسلمين على المعتدين عليهم المقاومين لدعوتهم . قال قتادة في بيان ذلك كما رواه عنه ابن جرير « فاذا رأوا من اهل الاسلام الفة وحماية وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم واذا رأوا من اهل الاسلام فرقة واختلافا واصيب طرف من اطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به ، فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محلته، وأبطل حجته وأظهر عورته، فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة »

ثم أرشد الله المسلمين الى ما إن تمسكوا به سلموا من كيدهم الذي يدفعهم اليه الحسد والبغضاء فقال ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾

ذهب بعضهم الى ان المراد وان تصبروا على عدواتهم وتتقوا اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين لا يضركم كيدهم لكم وهم بمعزل عنكم . وذهب آخرون الى أن المراد وان تصبروا على مشاق التكاليف وامتثال الأوامر عامة وتتقوا مانهيتم عنه وحظر عليكم — ومنه اتخاذ البطانة منهم — لا يضركم كيدهم . و « يضرّكم » بتشديد الراء من الضرر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب « يضركم » بكسر الضاد وسكون الراء المخففة من ضاره يضيره والضير بمعنى المضرة . وقال الأستاذ الإمام ان الصبر يذكر في القرآن في مقام ما يشق على النفس، وحبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه فان من لذات النفوس ان تفضي بما في الضمير الى من تسكن اليه وتأنس به فلما نهوا عن اتخاذ بطانة ممن دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم وعلل بما علل به من بيان بغضائهم وكيدهم حسن ان يذكروا بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم وباتقاء ما يجب اتقاؤه لأجل السلامة من عاقبة كيدهم . ويصح ان يراد بالتقوى الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى في البطانة وغيرها .

أقول ومن الاعتبار في الآية انه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين وباتقاء شرهم ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والإحسان ودفع السيئة بالحسنة ان أمكن كما قال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فان لم يمكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فانه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة بني النضير الذين نزلت الآية فيهم أولا بالذات فإنه حالفهم ووادهم فنكثوا وخانوا غير مرة أعانوا عليه قريشاً يوم بدر وادعوا انهم نسوا العهدثم اعانوا الاحزاب الذين تحزبوا لإبادة المسلمين ثم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فتعذرت موادتهم واستمالتهم بالمحبة وحسن المعاملة فكان اللجأ الى قتالهم وإجلائهم ضربة لازب

ثم قال ﴿ ان الله بما يعملون محيط ﴾ قال الاستاذ الامام ما مثاله: المحيط بالعمل هو الواقف على دقائقه فهو اذا دل على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين والوسيلة

للخلاص من ضررهم فانما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما ، والوسيلة المؤدية الى النجاح قطعا، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح . وهناك وجه آخر وهو أن الخطاب بتعلمون عام للمؤمنين والكافرين جميعا — يعني على قراءة الحسن وابي حاتم « تعملون » بالمثناة الفوقية أو على الالتفات — ومن كان عالما بعمل فريقين متحادين محيطاً باسباب مايصدر عن كل منهما ومقدماته ، ونتائجه وغاياته ، فهو الذي يعتمد على ارشاده في معاملة احدهما للآخر ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه في حاضرها وآتيها ما يعرفه ذلك المحيط بعمله وعمل من يناهضه ويناصبه فهداية الله تعالى للمؤمنين خير ما يبلغون به المآرب ، وينتهون به إلى أحسن العواقب،

وأقول ان الإحاطة إحاطتان إحاطة علم وإحاطة قدرة ومنع وهذا التفسير مبني على ان الإحاطة هنا إحاطة علم لتعلقها بالعمل وذلك من المجاز الذي ورد في التنزيل كقوله تعالى (٦٥:١٢ احاط بكل شيء علماً) وقوله (١٠: ٣٩ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) واما الإحاطة بالشخص أو بالشيء قدرة فهي تأتي بمعنى منعه مما يراد به وهذا ليس براد هنا وبمعنى منعه مما يريده وبمعنى التمكن منه ومنه الإحاطة بالعدواي اخذه من جميع جوانبه بالفعل او التمكن من ذلك ومنه قوله تعالى (٢: ٨١ واحاطت به خطيئته) وقوله (١١ : ٩٢ إنّ ربي بما تعملون محيط) وقوله (١٠ : ٢٢ وظنوا انهم احيط بهم) كل هذا من باب واحد وان فسر كل قول بما يليق به . فيصح ان يكون منه ما نحن فيه والمعنى حينئذ ان الله قد دلكم يامعشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم فعليكم بعد الامتثال ان تعلموا انه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة تمنعهم مما يريدون منكم معونة منه لكم كقوله (٤٨ : ٢١ واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها) فعليكم بعد القيام بما يجب عليكم ان تثقوا به وتتوكلوا عليه ،

ومن مباحث اللفظ في الآيات قوله « ها أنتم أولاء » أصله انتم هؤلاء فقدمت أداة التنبيه التي تلحق اسم الاشارة « أولاء » على الضمير . ويقال في المفرد « ها أناذا » وعلى ذلك فقس . واعرابه : ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وأولاء خبره وتحبونهم في موضع النصب على الحال أو خبر بعد خبر . وجوز بعضهم ان تكون أولاء اسم موصول وتحبونهم صلته

اليمن

سبب فتنتها وامام الزيدية فيها

إن العرب في اليمن وحضرموت ونجد وسائر جزيرة العرب يحبون الدولة العثمانية محبة صادقة وزادهم حباً فيها وحرصاً على بقائها في هذا الزمن اعتقادهم أن دول اوربا تتربص بها الدوائر وتحاول إزالة سلطتها لإزالة سلطة الإسلام من الوجود وهم على بقاء مميزاتهم الجنسية والوطنية على نحو ما كانوا في القرون الماضية والأجيال الغابرة لم يطر أعليهم من التغير ماطرأعلى أهل الاستانة ومصر والشام والاناطول وغيرها من الاقطار الإسلامية : لاتزال الرابطة الدينية عندهم فوق رابطة الجنس واللغة والوطن لم تعلمهم المدنية الأوربية التعصب للجنس كما علمت الاتراك ولا لقمة كما علمت المصريين فهم يتمنون لو يجدون من الترك حكاماً يقيمون العدل ويحكمون بالشرع لا يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك

ولكن الذي لا يطيقون احتماله ولا يصبرون عليه هو الظلم والجور والخيانة والغدر لأنهم ورثوا الاستقلال الشخصي والقومي وعزة النفس وإباء الضيم منذ آلاف من السنين

وقد بينت في المنار من قبل ان فئة قليلة من العمال (الحكام) المسلمين العدول العارفين بالشرع المهتدين به يكفون الدولة في اليمن امر هذه الحروب التي طالت عليها السنين فخربت البلاد واضاعت على الدولة من الأموال والرجال ماهي في أشد الحاجة اليه لصيانة استقلالها من عبث أوربا التي تواثبها المرة بعد المرة ، وأضرت بها انواعاً أخرى من المضرات لا حاجة إلى شرحها الآن

الزيدية طائفة من عرب اليمن تدين بوجوب إقامة إمام لها من العترة النبوية فهم بذلك أجدر العرب بعدم الخضوع للدولة العثمانية ولكنهم مع ذلك يتمنون لو تقيم الدولة في بلادهم العدل وتحكم بالشرع ويكون لهامنهم ما يريدون فما بالك بغيرهم حاولت الدولة غير مرة ان تقيم الحجة الشرعية على هؤلاء بوجوب طاعة

السلطان ، وتحريم الخروج والعصيان ، فأرسلت من خاطب إمامهم بذلك غير مرة فكانت حجة الإمام أنهض ، وحجة رسول السلطان أدحض ، لأن الظلم والبغي بغير الحق حجج عملية ، لا تبطلها الحجج القولية ، ولا تفيد معها شيئاً

وقد عثرنا في هذه الأيام على نص ما أجاب به إمام الزيدية عما وجهه اليه الشيخ محمد الحريري مفتي حماه المندوب الذي أرسله اليه السلطان منذ سنين ومنه يعلم صحة رأينا في هؤلاء القوم وهذا نصه :

المنصور بالله محمد بن يحيي حميد الدين

﴿ عصمتي بالله وما توفيقي إلا بالله ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ أيد دينك القويم بالعلماء العاملين ، واكشف ببركتهم جهل الجاهلين ، وارفع بحميد سعيهم غفلة الغافلين ، فهم بحور العلم الزاخرة ، ونجوم الهدى الزاهرة ، وزينة الدنيا والدين والآخرة ، وأهل الفضائل المتكاثرة ، منهم ذو المجد الشامخ المنيف ، والحسب الباذخ الشريف ، والأدب المثمر روضه الوريف ، السيد محمد الحريري الرفاعي الحسني الحموي ، ألبسه الله جلباب التقوى ، وقاده إلى التمسك بالحبل الأقوى ، واعاد على محياه السلام الأسنى ، والإكرام الأهنى ، وصلى الله على محمد خاتم أنبياه ، وعلى آله سفينة النجاة ، وتراجمة الكتاب وقرناه ، وعلى صحابته الذين اتبعوه بعد مماته وفي محياه ،

أما بعد فانا نحمد الله الذي لا يرجى ويخشى سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وانه وافانا منك أيها السيد كتاب كريم ، ومسطور رائق فخيم ، افاد معرفة بحقوق العترة النبوية ، والسلالة العلوية ، بما ورد فيهم من الآيات القرآنية ، والاحاديث الصحيحة المروية ، وان دواعي المحبة اقتضت المراسلة ، وبواعث المودة جذبت الى المكاتبة والمواصلة ، وان من لوازم المحبة والايمان ، بذل النصيحة للإخوان ، لا سيما ولاة الأمور ، الذين ناط الله

بهم صلاح الجمهور ، وافادا سعده الله انه مستنكر لما جرى بيننا وبين الولاة المرسلين من حضرة الدولة العثمانية ، والسدة الخاقانية ، من الحرب والاختلاف ، وعدم التوافق والائتلاف ، وانه يرى الخير في إصلاح ذات البين ، ورفع الفتنة التي تؤدي إلى التهلكة والحين ، وانه ورد الحث عليه في السنة والكتاب ، وانه مناط الرضا لرب الأرباب ، وان السلطان الاعظم ممن أقام الله به الدين ، وانتظمت به أحوال المسلمين ، وتشرف بخدمة الحرمين الشريفين ، وأقام بجهاد الكفار ، ومنابذة الاشرار ، وان رغبته في صلاح الدنيا والدين ، وقمع الفجار المعتدين ، وان القطر اليماني المحروس بالله محل الايمان ، كما ورد عن سيد ولد عدنان ، وان سعيه في ذلك نصيحة دينية ، ومحبة ايمانية

فنقول نعم الامر كما ذكرتم مما وقع بيننا وبين من تعلق بالسلطة القاهرة اعز الله بها الاسلام ، وقمع بها ذوي الالحاد الطغام ، ولم يكن لنا من الرياسة الدنيوية طلب ، ولا في الراحة البدنية أرب ، ولا نعول على جمع المال ووفرة المكسب ، ولا مزيد على ما نحن فيه من الحسب والنسب ، لكنا رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله ، ولا رعوا حرمة ما حرمه الله ، ولا غضبوا يوما على معاصي الله ، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ، و «شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » ، وارتكبوا المعاصي ، ورموا اليها الناس باطراف النواصي ، وجاهروا الله بشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وظلموا كل ضعيف ، واهانوا كل شريف ، حتى فسدت الذرية ، وارتفعت كلمة اليهودية والنصرانية ، وصارت الاكراد والمجوس تحكم في البرية . « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة » . ولا تأخذهم في المسلمين رأفة ولا رحمة ، ولما لم نجد عن أمر الله بدا ، استعنا وتوكلنا عليه وبذلنا في الجهاد جهدا ، امتثالا لقول الله عز وجل « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وقوله عز وجل « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » وقوله « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وخوفا مما خوفنا الله به من نحو قوله تعالى « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » حتى اذا بلغ الكتاب أجله كان هو الله المنتصر لنفسه

ولم نزل نتوخى ان السلطة القاهرة أعز الله بها الاسلام، اذا رفعت اليها تلك القبائح التي لا يختلف في وقوعها اثنان، أن تأخذها حمية الدين والايمان ، على تلافي مافرط من الاضاعة ، وتستدرك مافات من حق عترة رسول الله الذين لا تستحق بدون اتباعهم الشفاعة، فلم يزدادوا مع طول المدة الا انسلاخا من الدين ، وتوسعا من تأمر الفجرة المعتدين ،

فان قلت ايها السيد ان تلك القبائح مباحة في الاسلام ، وان فعلها مستحل من أتباع شريعة سيد الانام ، فهات الدليل ، ولا يقول بذلك الا ضليل ، وان انكرت ايها السيد أن ذرية الرسول ، هم الحجة في الفروع والاصول، صاح بك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » وقوله تعالى « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي ان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض » وقوله صلى الله عليه وسلم «إن عند كل بدعة تكون من بعدي وليا من ذريتي » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي امان لاهل الارض » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي كسفينة نوح » وغير ذلك مما لا يتحمله المقام فالظهور أبين للحجة ، واوضح للمحجة ، لاما خوفتنا به من القتل والنكال ، فانا اهل بيت لا تزعزعنا كواذب الآمال ، ولا نعد بذل نفوسنا في سبيل الله إلا من اشرف الخصال ، ولا نفزع الى غير ذي الجلال ، ولا ندعو سواه في البكور والآصال

على ان قومي تحسب الموت مغنما وان فرار الزحف عار ومغرم

« امَّنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون الا في غرور » ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم

من بعده «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم * ونريد ان نمنّ على الذين استُضعِفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين* الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور» فنحن من وعد ربنا على يقين ، «والعاقبة للمتقين» وانك لا تجد في خطتنا المنصورة إلا قائما لعبادة ربه اذا اسدل الليل جناحه ، او تاليا كتاب الله وذاكرا اذا أطلع الفجر صباحه ، ومساجدنا معمورة بالعلم والعمل ، وقلوبنا ضالة عن الجبن والفشل ، ولا نفتخر كغيرنا بآلات الحرب الفاخرة ، ولا بالسيوف المتكاثرة ، التي تحت امرنا عاثرة ، بل نتبرأ من الحول والقوة ، ونتمسك باذيال سيرة الامامة والنبوة

مغارس طابت في ربا الفضل فالتقت   على انبيـاء الله والخلفـاء

اذا حمل الناس اللواء عـلامة   كفاهم مشار النقع كل لواء

فقد اوضحنا لك ايها السيد طريقتنا ، وأبلغنا اليك أفعال أعادينا «فاي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون» ولو يعلم السلطان الاعظم حقيقة الحال ، لسارع الى اعانتنا في الحال والمآل ، ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية ، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية ، ولمنعهم عن محاربة العترة النبوية ، التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية ، ولأوفى جدنا الاعظم اجر تبليغ الانباء المشار اليه «بقل لا اسألكم عليه» الآية . ولتباعد عن مشابهة من قال فيهم خاتم النبيين «من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال» وعن الدعوة النبوية في قوله لأهل بيته «انا حرب لمن حاربتم سلم لمن سالمتم» وقد امر الله تعالى بالكون مع الصادقين بقوله تعالى « ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وثبتهم بقوله « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله واولئك هم الصادقون * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين* ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم* ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء * ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني إلى النار) فاذا وجدت ايها السيد خلاصا من اوامر

الله افدنا من كتاب الله ومن سنة رسول الله ودع عنك التخويف بالمخلوقين كما قد قيل

جاء شقيق عارضا رمحه ان بني عمك فيهم رماح

واما اجتماع الكلمة على الحق فمن أين لنا ذلك ، والا فهو عندنا من اعظم المسالك ، حقناً للدماء ، ورفعاً للدهماء ، ونسأل الله ان يرفع عن الامة المحمدية السوء والمحن ، ويجعلها على اتباع الكتاب وقرنائه اهل بيت النبي المؤتمن ، وان يعيذنا من نزغات الشيطان الرجيم ، ومضلات الفتن وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان اللائق بحال اركان السلطان الاعظم ان يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار وقد اضر بواعنها صفحاً ، وطووا عنها كشحاً ، وما سارعوا لغير مملكة اليمن التي بايدي أولاد رسول الله ، يحكمون فيها بما انزل الله ، ويمنعون محارم الله ، فهلا جعلوا آل الرسول كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم ؟ اللهم اشهد وكفى بك شهيداً » اه

(المنار) تسمع الدولة هذه الاخبار وتقرأ مثل هذا الجواب ثم هي توالي ارسال الجيوش الى اليمن فاذا توالى انكسارهم ارسلت من الرسل السلميين من يقيم الحجة على امام الزيدية !! لم نعتبر باخفاق محمد الحريري وحسن خالد الصيادي فارسلت في العام الماضي وفداً من علماء مكة فكانت حجتهم كحجة من سبقهم . ولو سمعت كلامنا نحن الناصحين المخلصين لأرسلت والياً عادلاً حكيماً وعمالاً من اهل الدين والاستقامة فبذلك لا بسواه تنطفئ نار الفتنة ، وتخضع اليمن للدولة ، فاذا اعوز الدولة هذا العلاج ، فلتعلم ان جميع بلاد العرب ستتبع اليمن في الخروج عليها ، او الخروج من سلطتها ،

المؤتمر الاسلامي

سبق لنا قول في المؤتمر الإسلامي الذي اقترحه اسماعيل بك غصبرنسكي القريمي ونقول الآن ان اللجنة التي تألفت للبحث في ذلك وسمت نفسها اللجنة التأسيسية قد وضعت لهذا المؤتمر قانوناً طبعته وأرسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية

والتركية والفارسية الى الجرائد الإسلامية في القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية والى من عرفت من أهل الفضل والرأي من المسلمين. وقد جعلت الباب الثاني من القانون خاصاً ببيان موضوع المؤتمر وفيه ثلاث «مواد» نذكرها بنصها وهي:

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ وظيفة المؤتمر هي البحث في الاسباب التي أوجبت تأخر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع والنظر في إزالة تلك الأسباب وفيما يؤدي الى رقيهم

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ لا تقبل الآراء التي تعرض من الوجهة الدينية إلاّ اذا كان لها سند من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ لا يجوز التعرض في مناقشات المؤتمر وأبحاثه للمسائل السياسية أياً كان نوعها اه

وقد سرنا موافقة الشيخ سليم البشري رئيس اللجنة على المادة الخامسة عشرة سروراً عظيماً وعددناها من بشائر الإصلاح، وأمارات النجاح، ذلك بأن الإصلاح الإسلامي مع التزام المذاهب المعروفة والجمود على كتب متبعيها محال ولذلك جرينا في المنار على اتباع الدليل في المسائل الدينية وترك التقليد وإقامة الحجج على المقلدين، لان المنار كالمؤتمر عام لجميع المسلمين •

وقد قلنا في مقالة طويلة عنوانها (بحث في المؤتمر الإسلامي) نشرناها في الجزء التاسع من السنة الماضية ما نصه (ص ٦٨٠ م ١٠)

« ثم انه ينبغي ان تكون القاعدة الاساسية الاولى للإصلاح الديني في المؤتمر هي المحافظة على المجمع عليه عند المسلمين لا سيما ما كان منه معلوماً من الدين بالضرورة وذلك هو القرآن المجيد وما استفيد منه بالنص القطعي وبعض السنن المتبعة — ونعني بالسنة معناها اللغوي الذي كان يفهمه الصحابة ومنه ماهو فرض أو واجب ككون الصلوات المفروضة خمساً، ركعات كل صلاة منها كذا يقرأ فيها كذا ويركع في ركعة مرة ويسجد مرتين ومنها ماهو مندوب في اصطلاح الفقهاء كما هو معروف

« ذلك ان المؤتمر الإسلامي عام لجميع المسلمين وفيهم السني السلفي وغير

السلفي والشيعي والأباضي . ومن السنية الحنفي والمالكي الخ ومن الشيعة الجعفري والزيدي ، فالذي يجمع بين هؤلاء ويوحد كلمتهم هو كتاب الله والسنن العملية المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي عن آله وأصحابه رضي الله عنهم . وبذلك يكون المؤتمر غير مقيد بالتقاليد الاجتهادية التي تثير النزاع وتفرق الكلمة فلا يمنع أعضاءه مانع من الاعتصام بحبل الله ودعوة سائر المسلمين الى الاعتصام به »

كتبنا هذا لتنبيه لجنة المؤتمر قبل الابتداء بعملها إلى هذا الاساس الذي لا يفيد المؤتمر بدونه شيئاً وكنا نخاف أن يحاول من دخل في اللجنة من علماء الأزهر تقييد المباحث الدينية في المؤتمر بنصوص كتب المذاهب وكان أخوف من نخاف في ذلك رئيس اللجنة الشيخ سليم البشري لأنه كان يبلغنا عنه انه ممن ينكرون على المنار الإنحاء على التقليد والاعتماد في مباحثه على الأدلة الشرعية فلما رأيناه الآن ، وافق على قانون المؤتمر الذي جعل أساس مباحثه الدينية الاجتهاد دون التقليد حل الرجاء محل الخوف ووجب علينا ان نثني على الأستاذ الكبير الشيخ سليم البشري أجمل الثناء فحياه الله تحية مباركة طيبة ،

انما قصرنا الثناء على الشيخ سليم من دون سائر اعضاء اللجنة الواضعة لهذا القانون لان معارضة مثل الشيخ سليم من كبار العلماء أصحاب الشهرة والصفة الرسمية في مسألة اجازة الاجتهاد ومنع التقليد تعد عقبة في سبيل الاصلاح وموافقته عليها تعد تمهيدا عظيما لهذه السبيل التي هي سبيل الله وعونا كبيرا للسالكين فيها ، ولا نبخس احدا من اعضاء اللجنة حقه ، ولا نظلمه شيئا من فضله ، بل نرجو ان يكثر فينا من أمثالهم الجاهرون بهذه الدعوة كما كثر المعتقدون لها وان لم يصرحوا بها

ان في علماء الازهر كثيرين يعتقدون بطلان التقليد ووجوب اتباع الدليل ولكن يقل فيهم من يجهر بذلك قولا ويندر من يتجرأ منهم على كتابة ذلك في الصحف المنشرة والدعوة اليه على رءوس الاشهاد . ذلك بان كبراء الشيوخ ذوي المكانة عند الامراء والشهرة عند العامة ينكرون ذلك على قائله ويضطهدونه ان استطاعوا ويبالغون في ذلك مبالغة هي عندي من مثارات العجب . افلا يحق لنا اذاً أن نكبر إجازة الشيخ سليم البشري جعل قبول ما يقدم للمؤتمر من الآراء والمباحث

الدينية مشروطا بأن تكون مؤيدة بدليل من الكتاب او السنة او الاجماع او القياس ونحن نعلم أنه من أولئك الشيوخ الكبراء بل هو في ناصيتهم وذروتهم اذ هو شيخ المالكية وكبيرهم الآن وكان بالامس شيخ الازهر ؟ وقد اشتهر بانه اعلم اهل الازهر الآن بالحديث ولعل الخير جاء من هذه الناحية فأهل الحديث مازالوا أبعد الناس عن التقليد.

ونعود الى مباحث المؤتمر فنقول ان المباحث الدينية قد اشترط فيها هذا الشرط الذي سررنا به على اجماله واما المباحث الاجتماعية فلم يشترط فيها شيء واذا يسر الله واجتمع المؤتمر فاننا سنحتاج الى تحديد ماهو اجتماعي غير ديني وفي ذلك من العسر مافيه لا سيما في المسائل العائلية والمالية بل أقول ان المسألة الجنسية لها علاقة عند المسلمين بالدين وقد كان السيد جمال والشيخ محمد عبده يقولان ان المسلمين لاجنسية لهم في غير دينهم ولكن كثيراً من الاتراك والمصريين يقولون اليوم بجنسية النسب وجنسية الوطن ولا يعدون هذا مما يتعلق بالدين وهذه المسئلة من اكبر المسائل التي ننتظر من المؤتمر — ان اجتمع — حل عقدتها

ذكر اسماعيل بك غصبرنسكي في احد اعداد جريدته « ترجمان احوال زمان» ان أحداً كياء الترك يريد ان يلقي في المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء امة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة وديناوسياسة !!! وربما يسمع المصري وغير المصري ممن لا يعرفون الغاية التي وصلت اليها نابتة الترك من التفرنج هذا القول فيرونه عجيبا غريبا ولكن لا يعجب منه من يعلم ان كبار كتاب الترك قد دارت بينهم منافسات طويلة في هذه المباحث استمرت عدة سنين وكان فيهم من كتب مثل هذا الرأي حتى غلا بعضهم فقال انه يجب تطهير التركية مما فيها من مفردات اللغة العربية

نحن نعد هذا شذوذا وغلوا ويوافقنا على رأينا كثير من فضلاء الترك لاسيما المتدينين منهم . واذا انعقد المؤتمر فان جمهور المسلمين من جميع الشعوب سيسمعون من اخبار امراض المسلمين الاجتماعية والدينية مالا يخطر لهم الآن في بال ، ونسأل الله ان يحسن العاقبة والمآل

الرد على اللورد كرومر

(تتمة الكلام في مسألة المعارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المغالطة في هـذا الفصل فعمل محمـد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة في فرنجة عـدد معين للوظائف . والانفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لايجعل مقياسا لوقت يزيد فيـه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا العصر لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقرى دائماً ولما ساغ لانكلترا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الحالكة شر تمثيل ثم هو يجعلها أساساً يبني عليه سياسته في التعليم ؟

اللورد قد ذم المتفرنجين في كتابه ذما بليغا وبين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يعذره اذا طلب لبلاده تعليما أنفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المتفرنجين ؟

ومن المغالطة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يعلّمون مجاناهم في الغالب اولاد الاغنياء، فإن العدل في ازالة هذا الامتياز بما يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أراده القابضون على أزمتها

لو كانت الطريقة التي أزيل بها امتياز أولاد الاغنياء على أولاد الفقراء في التعليم المجاني عادلة لكان من العدل ان يمنع الماء عن الاراضي التي كان الاغنياء يميزون فيها على الفقراء في الري حتى لا تزرع منها أرض فقير ولا غني فان العلم حياة النفوس كما ان الماء حياة الارض.

لم يكن الشيخ محمد عبده راضيا عن سياسة التعليم بمصر في وقت من الاوقات . ففي زمن توفيق باشا حمل على نظارة المعارف حملة قلمية منكرة في جريدة الحكومة الرسمية ومقالاته في ذلك مثبتة في الجزء الثاني من التاريخ الذي وضعناه له. وقد حمل ذلك الحكومة على الشروع في إصلاح التعليم والتربية ولكن جاءت الثورة العرابية فأوقفت كل عمل وتلاها الاحتلال ونفي الشيخ من البلاد . وبعد عودته رأى سياسة التعليم غير سديدة فقدم لعميد الدولة المحتلة ـ وإياك اعني ايها اللورد ـ لائحة [1] فيما يجب اتباعه في التربية والتعليم فوضعت في زوايا الاهمال ،

لعل اللورد لم ينس ان الشيخ كتب في هذه اللائحة ما نصه «المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة » [2] ثم ذكر غرض محمد علي باشا من انشائه لها وما كان حظها من خلفه الى عهد اسماعيل باشا . ولكن الشيخ ذكر ذلك حجة على فقد التربية والمعارف الحقيقية منها فجاء اللورد يذكره من بعده في تقرير ١٩٠٥ ويجعله حجة على بقاء ما كان على ما كان الا المجانية فانه يري ابطالها بعد انتظام مالية الحكومة وامتلاء خزائنها ! !

مرت الايام على موت هذه اللائحة والشيخ محمد عبده قاض في المحاكم ليس له طريق رسمي الى دعوة الحكومة الى اصلاح التربية والتعليم وقد

«١» ص ٣٦٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام «٢» ص ٣٢٩ منه

جرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى غرضه وبرأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين ولوائح التعليم في نظارة المعارف (بروجراماتها ومنشوراتها) على المجلس ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية (وقد بينا ضعف اقوال الناظر يومئذ في المنار ص ١١٠ و ١٤٩ م ٥)

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجهيزية . وقد ذكر في آخر تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية (دار العلوم) ضعف تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضعيفا فكيف يكون تعليم هؤلاء المعلمين له ؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتبه الشيخ محمد عبده لمسيو جرفيل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكره ـ ان كان ناسيا ـ ان لها أصلا أصيلا مؤيداً بالبرهان والدليل ، ومن العجائب ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية : فمن ذا كتب مايعلم انه لا أصل له ؟ ألشيخ ام اللورد؟ اللورد يعرف ذلك اذا لم يكن السخط قد انساه تلك اللائحة التى قدمت اليه وتلك الحجج المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكلها ناطقة بأن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة . فهذا ما نقول في السبب الاول لسخط اللورد على الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

افضاء الاستاذ الامام لمستر بلنت بعيوب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقن مستر بلنت جل ما في كتابه (التاريخ السري للاحتلال) من عيوب ادارة المحتلين بمصر[1] فهو مما يعذر فيه فان هذا مما يغيظ السياسي والحاكم المطلق حقيقة. واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعذر حافظي الوقائع التاريخية ورواتها ومدونيها. واللورد في كتابه «مصر الحديثة» مؤرخ لا حاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم إذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتحام القدح في امرائها وعلمائها وعمالها وجميع أهلها بناء على انه مؤرخ يجب عليه إظهار الحقائق - اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق - فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن أعانه على ذلك؟ اليس من العدل العام ، أن يدين المرء كما يدان؟

هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصه ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمد عبده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيا اذا كان مؤلما له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ألا إن منتهى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد ، أن يؤاخذ الناس بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقائهم ومحبيهم ،

ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لا يخطر في بال الانسان عند

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

مايحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدّون وينشر بين الناس ولذلك ينتقد بعض أهل الرأي على مستربلنت ذكر مسائل وخواطر حدثه بها الشيخ محمد عبده فنشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتمني جمال الدين لو يقتل اسماعيل باشا واستحسان محمد عبده لرأيه . على ان هذه المسألة اصغر من القالب الذي وضعها لورد كرومر فيه كما سنبينه

بقي علينا وقد بينا اختلاف قولي اللورد في الاستاذ الامام وسبب هذا الاختلاف ان نبين الحق فيما لمزه به فنقول انه ينحصر بحسب ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

الاولى وصفه أنه خيالي

قول اللورد في الشيخ انه كان مفطورا على الخيال [1] لا يتفق مع قوله فيه من الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا ـ ومن الجهة السياسية والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرية وان اتباعه اذا نجحوا وسوعدوا على ما اختطه لهم من المبادىء المعتدلة فهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم كالجيرونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه ـ ومن الجهة العلمية والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن

ما هي الآراء الخيالية التي كان يبديها للورد فيتعذر عليها تنفيذها له لانها خيالية لا عملية ؟ العله يعني بها تلك اللائحة [2] التي اقترح بها عليه جعل التربية الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب ويبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الاشارة الى هذه اللائحة

البلاد المصرية وتكون بمأمن حتى من التعصب وفتنه الا بالتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أتم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة (كاقتراحه في مجلس شورى القوانين تعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجهيزية) فلماذا يسيء الظن بدينه وهل تكون هذه الغيرة على الدين لضعاف الايمان أو للأدريين؟

للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو منتهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية (١) ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدنية ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه معها. ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة لعميد انكلترا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا العميد وبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخيل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على اننا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان منتهى غرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعليم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذا لم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يبعد ان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضاً في نظر اللورد

« ١ » جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها - راجع ص ٢٢٨ من مجلد المنار العاشر

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فإلحاح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزينة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « انني لا أعطي قرشا واحداً للمحاكم الآن » كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « انه هكذا قال لا أعطي بضمير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير يعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها ؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريراً فيه اصلاح لمحاكم شرعية وراء اصلاحها إصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكلترا موت الشرع في مصر وإبطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى مطالبته باصلاح المحاكم الشرعية من الخيالات والاوهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيؤن الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟

نعم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يعدها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبا نفسها في يوم من الايام ، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علم بها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ «لا أدريا» فانها امال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا ، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رءوس الاشهاد في قوله تعالى « ٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

لهم » الآية « ان هذه الآية لم يأت تأويلها بعد ولا بد ان يأتي ولو بعد حين وان كان بعيدا » فهل تكون هذه الثقة بوعد في القرآن كهذا (قيل انه قد حصل) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من لورد كرومر فاننا نعرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء محدودة منها بعض الآراء في مصلحة مصر وكان صاحب هذه المجلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان مفطورا على الخيال غير ماذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية وإصلاح المحاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجه همته الى اصلاح الازهر ولكن كل ماتشبث به من الاصلاح كان عمليا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مدون بالتفصيل في كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين) ومالم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام بمحل لذكره

نعم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أعلى وأسمى مما تشبث به من مبادئ الاصلاح التدريجية ــ آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على بيانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، وهداة يهدون جميع طبقات أهله الى ماجهلوا منه ، ولكن العوائق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلعا على هذا وإلا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا »

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الادارة فعهدي ان آراء الاستاذ الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كعدوله عن الغاء النيابة العمومية عملا برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت فيه المناقشة بينهما ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه وان أكثر النابغين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول القبض على السلطتين فيجعل الامير وعميد الاحتلال معا في يديه فهذا من آراء صاحب المؤيد التي لم تخطر للورد على بال فيما يغلب على ظني

الثانية ظن اللورد انه لاادري

نبز اللورد الاستاذ الامام بلقب « اللاأدري » (*) وهو قد أخذه من ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشى » ان يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من الظن الذى قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء النابغين من مريدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل ظن لورد كرومر

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التى استنبط منها اللورد كلمته هي من المسلمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

*) راجع صفحة ٩٤ من الجزء الماضي

اثنين متعصبا او ملحدا في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمعها وانا تلميذ مبتديء وهي « ان النصراني المتعلم ملحد لا دين له فان تعصب لقومه وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » ومما كنا نسمعه من آبائنا وبعض مشايخنا : « ان مما يمتاز به الاسلام على النصرانية المعروفة ان المسلم يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم العلوم مرق من الدين ولذلك كانت مدنية المسلمين وعلومهم في حياة ونمو أيام كان الاسلام حيا في نفوسهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعته عندهم » فالامم والملل تتشابه في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية ويؤيدونه من الجهة الحسية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالالحاد وكثير ما هم. ولما كان النصراني يعتقد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا واعتقادا نظريا ان كان ملحدا كان للملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري ان المسلم العاقل المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا ولا يعدمون من المسلمين المتفرنجين من يجاهرون امامهم بالكفر ويسكرون معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يعلمون ان هؤلاء الذين يظنون انهم قد ألحدوا بعد اسلام لم يعرفوا يوما ما من الاسلام شيئاً

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكليز ذوي التربية العالية فيهم وجرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة يقول « ان ما تقوله معقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

يقولون به لو سئلوا هذا السؤال » . وقال لي مرة « ان كان الاسلام ما تقرره فأنا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الاسلام « انني أنا اعتقد هذا فاما ان اكون مسلما واما ان تكون كافرا » وقال لي مرة «ما اظن ان احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده» ولا يبعد ان يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وماذكرته له من حكمة الصيام وإعجابه به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النصارى للغداء في رمضان وعرضوا عليّ القهوة مرارا كثيرة فكنت أقول متعجباً أو نسيتم اننا في رمضان؟ فيقولون او أنت تصوم أيضا ؟ فاقول : أي شيء يبيح لي الفطر ولست مريضا ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النصارى هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهريا وهو يسرّ الإلحاد في قلبه فهل اللورد ملحد ام هو مقلد لستانلي في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يتفق هذا مع شهادته للشيخ محمد بيرم بالايمان والعقل جميعا ؟

قال اللورد بعد ماذكر أنه يخشى ان يكون الشيخ محمد عبده لا أدرياً «وان كان يستاء من هذه النسبة» فقوله هذا يشعر بأنه ذكر أمامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصريحا او تلويحا فاستاء وامتعض وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لا ينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه أعز شيء عليه وهو الذي جعله لا يخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأيوسا منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومداراتهم الاستعانة بهم على خدمة العلم والدين

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الامير ليستعين به على اصلاح الازهر، ويختلف الى اللورد ليستعين به على اصلاح المحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التى شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسعيه لديه فيها، ـ كان يستجديهما معا لمصر وللاسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى .
فلا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تتضاءل في طمر بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، فى موضوع لم يعرفه ،

الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

نقل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا عند مروره على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما [1] اي لم يكاشفا به أحدا لاعتقادهما انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظمها ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجته « ان العالم المتمدن كله ينظر بعد هـذا الى الوطنيين شزرا ! ! ويحتقر بالاكثر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضعيفة الاستنتاج والاستنباط بل على أضعف المصريين الذين يعدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفندوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألنا أحد

« ١ » راجع ٦٦ من الجزء الماضي

لابسي الجلابيب الزرقاء من فلاحي مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كالسيد جمال الدين الافغاني في قتل أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذله كمحمد عبده المصري لفكرته وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتمدن لهما وللوطنيين المصريين دائماً الآن تلميذاً منهم استحسن من زهاء ثلاثين سنة قتل أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها ؟؟ - لو سئل الثلاثة هذا السؤال لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس علم المنطق واشهر الفلاسفة المتاخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولا لوم من تلك الفكرة ان فرضنا انها فكرة تنافي المدنية ، وان المنطق يتبرأ ممن يقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين على مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد عبده في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة حتى كون لنفسه حزباً له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان اسماعيل باشا هو العقبة الكؤد في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد من الغريب عند الامم المدنة ان يتمنى ازالتها اويفكر فيها فينظر العالم المدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزر لان من علمهم السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة ؟؟

يالله من هذا العالم المدني الذى لم يفكر في مثل هذا قط ؟ ما هو واين هو ؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

واحدا وعشرين ملكا ورئيسا في مدة لا تتجاوز قرنا من الزمان (*
ونعني بالرؤساء رؤساء الجمهوريات الذين تبعتهم اقل من تبعة الملوك

ان خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطانة به قد يكون تمنيا لا يصل الى درجة العزم ، وقد يعزم الانسان على الشيء حتى اذا ام بمباشرته راجع نفسه وثنى عزمه فرجع عنه نادما ، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يودون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين يوماً الى تنفيذ ذلك الخاطر ؟؟

اما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملا سياسيا فهذا مما لا يجهله لورد كرومر ولا أحد من ساسة انكلترا وفرنسا الواقفين على احوال مصر الاخيرة ، وهم يعلمون انه اذا ترك السعي لقتل اسماعيل باشا فانه قد سعى لعزله

قال الاستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد اليه بتأليفه الامير عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل اسماعيل باشا وذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأموراً فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على ذلك ما نصه

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (اي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات في هذا الامر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو

*) ذكر ذلك في ص ٣٥٥ من جزء المقتطف الرابع الصادر في ابريل الماضي

الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لابد ان تنالا ما تطلبان عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

«ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى اليه وأن الاصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم «الحزب الوطني الحر» اه المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن امثل من اولئك الملوك الذين قتلهم العالم المتمدن وآخرهم ملك البرتغال بل ولا من اولئك الذين ثاروا عليهم وقتلوهم بمحاكمة او بغير محاكمة ومنهم شارل الاول ملك الانكليز الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت بقتله . وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد، ظالم للعباد، مضيع للملك، مهلك للحرث والنسل، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب، ثم يقتل الملك بعد ذلك بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ماشرحه لورد كرمر في تاريخ «مصر الحديثة» من فظائع اسماعيل باشا كاف في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين ثارت عليهم رعيتهم بتدبير فلاسفتهم وعقلائهم فأين من اسماعيل باشا لويس السادس عشر وشارل الاول

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة العرابية حالة مصر التي تركها عليها اسماعيل باشا تمثيلا تلطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب ذلك لحفيده الامير الحالّ كتابة حاول فيها الاعلام مع توقي الإيلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة معهما بعقود ووعود عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

— وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي للمالية والآخر فرنساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا

— وبعد ان كادت أحكام المحاكم المختلطة تؤدي بتنفيذها الى اشهار افلاس الحكومة ، وأدت بالفعل الى انتزاع املاك كثير من ذوي الثروة من الاهلين

— وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب من حالتهم المعاشية لتعوّد الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا

— وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الغفلة عن مصالح البلاد الى حد انهم كانوا لا يفهمون للوظائف معنى الا أنها وسيلة لتحصيل النقود من الاهالي بأية طريقة ليُدَس منها شيء في جيوب المباشرين للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين به والمقربين اليه

وبعد ان صارت الجندية في البلاد صورة لا يعقد بها دفاع ولا حماية

وإنما يراد بها الظهور بعظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع في بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها، وعليهم المعوّل في أغلب شؤونها

ـ وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في المعيشة تقليداً للمقربين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما ينفقون في اللذات

ـ وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام في التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى وفقر واستعمالهم اشد العقوبات في سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المرابي المئة بمئة في ثلاثة أشهر ولم يكن يرى في ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان أمامه القدوة العظمى وهى الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بعينه

ـ وبعد ان صار للربويين بذلك سلطة على الاهلين وطمع في اموالهم يفوقان سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسمونهم اكابر البلاد وأعيانها، أو ذوات الحكومة وأمراءها، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون في الوقت الذي يريدون متى صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة ويتصرفون فيهم كما يتصرف الراعي في ما شيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتعود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود العزائم وانطفاء مصابيح الرشد في جميع الطبقات

ـ وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده ، اذا تكلم تمتم في كلامه ، واذا قصد امرآ خطا اليه على غير هدى ، يتلفت ووراءه خوف مفاجأته بما يكره

ـ وبعد ان كانت الفاقة قد شملت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القحط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

ـ وبعد أن صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليمدهم بالمعونة على الخروج مما هم فيه

ـ هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها . هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها العزم الشديد ،» اه المراد مما كتبه هناك

وقد استطرد منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكامهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد سبقت الاشارة اليه - وكان كل ذلك من مبادي الحوادث العرابية ومقدماتها ، وان شئت قلت من عللها وأسبابها ، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اسماعيل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الاستقصاء في بيان الحال ، فضلا

عن المبالغة في التقبيح والتنفير، فهل يلام من له عقل يفكر، وقلب يشمئز اذا مقت ذلك الامير، وتمنى لو يفتا له احد من اولئك المظلومين المقهورين او استحسن تمني من تمنى ذلك ؟؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهناك مسألة أخرى عدها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم انهم «أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وأدنى من المصري المغالي في تفرنجه» [1] والحق ان هذه العبارة لا ينتقد منها الا لفظها فهي مدح كتب في حال استياء وامتعاض فجاء شبيها بالذم اذ توهم انهم دون الفريقين في علم او فضل ومعناها الحقيقي ان هؤلاء القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف المتشددين في المحافظة على الرسوم والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المتغالين في تقليد الافرنج الذين اضاعوا دينهم وثروتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم . ولم يرد اللورد بهذه العبارة الا ما اوضحه في تقرير سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده هو الحزب المعتدل في مصر الذي يناط بنجاحه استقلال هذه البلاد الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ في بيان المراد الا ان احداهما كتبت في حال رضى فتلت المعنى مضيئا واضحا والثانية كتبت في حال السخط فتشي المعنى فيها غاشية من ظلمة الايهام

وقد زلّ قلم اللورد بسوء تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لعله اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صفح

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

عن الشيخ محمد عبده « طبقالما اتصف به من الحلم وكرم الخلق »[١] وقال في كتاب مصر الحديثة انه عفا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك »[٢] فزيادة انقياده لتشديد الانكليز نقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن انقياد لتشديد الانكليز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكليز بل لم يكن هناك حاجة اليه

فاللورد جدير بأن يخجل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جعلت كلامه متناقضا او متعارضا وأبانت انه يحابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما معا كرما وحلما وكرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئا عن تشديد من الانكليز في طلبه لا عن مجرد الطلب فيقال إنه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد اللورد بذلك أن يظهر فضله عليه، ليثبت أنه أساء الى من أحسن اليه، بما أظهر عن عيوب سياسة الاحتلال وادارته لمستر بلنت. والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه، ولا بذمه لمن يسخط عليه، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء اللورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة اللورد به شهادة جديرة بالاعتبار والايثار وهو يلخص في هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل في القضاء وأدى الامانة حقها

(٢) كان واسع الرأي

(١) راجع ص ٩٠ من الجزء الماضي (٢) ص ٩٥

(٣) كان على علم ونباهة
(٤) كان عدوا للخدويين والباشوات غير الصالحين
(٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله
(٦) انه أسس في مصر مدرسة فكرية
(٧) ان له في مصر حزبا معتدلا يجمع بين أصول الاسلام والمدنية
(٨) ان أتباعه هم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون الجديرون بمساعدته
(٩) إن له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا
(١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا

فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا معها ظنه انه كان لا أدريا ، ولا جزمه بأنه كان خياليا ، ولا إيهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نعم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطا بين المحافظين الجامدين ، والمتفرنجين المقلدين ، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو اقرب الى أولئك، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرنجين والجامدين يجلونه مع احتقار كل منهما للآخر. وقد عرف أصحاب المقطم والمقتطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا بما لم يصرح هو به اذ قالوا في تأبينه بالمقطم (ع ٤٩٥٢) ما نصه[1]:

« فأول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان علما يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ما جرى عليه

(١) ص ٤٥ من الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائدا للآراء ومديراً للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان القديم لا يغني عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . ونقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان الفقيد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى انفرد فيها او كاد » الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لمجلة المقتطف ما نصه[1]:

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ماهم فيه او ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علما يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم – وعضدا قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها ، » الخ

هذا رأي أصحاب المقطم والمقتطف سقناه الى اللورد لان مثبتيه غير متهمين عند اللورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده

واذا أراد اللورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرقى الطائفتين (المحافظين والمتفرنجين) فليقرأ ما أبنه به الشيخ احمد ابو خطوة أرقى الازهريين علما وفهما وقاسم بك أمين أرقى المتعلمين في أوربا واللورد يشهد بنبوغه وقد اثنى عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

(١) ص ٣[illegible] من ج ٣ من التاريخ المذكور

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خطوة في ابتداء كلامه «اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر المجلل الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده » الخ ثم فصل اصلاحه للازهر وللمحاكم الشرعية تفصيلا

وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ماخسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده ». وقال انه « وصل الى أسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقا بعده » ثم قال:

« سادتي: ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والجمال المطلق لايوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها . ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز. نفس خلقت على أحسن شكل، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنتعلم منه » كذا وكذا وذكر بعض مزايا الامام ثم قال « ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في إنسان اجهد نفسه ووباها حتى أرسلها الى اقصى ماتصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتفي في هذه المسألة التي يعرف منها طريق اللورد في الكلام عن رجالنا ونتتقل منها الى المقصد الاهم وهو كلامه في الاسلام والمسلمين فنقول

القرآن والعلم

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

اشتبه بعض علماء الافرنج من المستشرقين وغيرهم الباحثين في الإسلام في آيات كثيرة من القرآن الشريف لم يفهموا معناها الصحيح بسبب ما وجدوه في بعض كتبنا من التفاسير السخيفة والآراء السقيمة • وقد اتبعهم في ذلك دعاة المسيحيين متخذين بعض آراء هؤلاء المستشرقين ذريعة للطعن في الكتاب العزيز ناسبين إليه الجهل والخطأ لتشكيك عوام المسلمين في دينهم القويم • وقد سبق لي ان تكلمت على كثير من هذه الشبهات في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) بما يشفي العلة ، ويروي الغلة ، ولكن فاتني ان استقصيها جميعاً إذ ذاك • فلذا رأيت الآن أن أستدرك ما فاتني خدمة للإسلام وتذكيراً للعلماء كي ينظروا في هذا الدين ويقدروه قدره. فانه ما نظر فيه عالم محقق من اي وجهة كانت الا وجد الحق والصواب عماداً لجميع مبانيه ، والعلم والعقل أساساً لكافة عقائده وأوامره ونواهيه ، وقد رايت أن أذكر الآية أولاً ، ثم أعلق عليها بما يفتح الله به عليَّ حتى يتضح الدليل ، وتستبين السبيل ، فأقول وبالله أستعين:

المسألة الاولى

(الحجر)

قال الله تعالى (١٥ : ٨٠ ولقد كذّب اصحاب الحجر المرسلين ٨١ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ٨٢ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) • اعلم

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

انه يوجد بين العقبة والبحر الميت مدينة شهيرة عند السائحين تدعى باللغة اليونانية (بترا) أي الصخرة وهي المسماة في العهد القديم بمدينة « سالع » كما في سفر الملوك الثاني (٧:١٤) وفي كتاب اشعيا (١٦ : ١) وكلا الاسمين « بترا » و « سالع » بمعنى واحد لكنهما بلغتين مختلفتين . يحيط بهذه المدينة جبال وعرة أعلاها جبل هور المذكور في سفر العدد (٣٣ : ٣٨) ولذلك كان اليهود يسمون اهلها الأولين بالهوريين ومعناه سكان الكهوف لأن بيوتهم منحوتة في الصخور ومنظر هذه المدينة من اعجب المناظر

فلما رأى بعض سياح الافرنج هذه المدينة وسمع ذكر « الحجر » في القرآن الشريف ظن ان هذه الكلمة ترجمة لفظ « بترا » اليوناني لتوهمه انها بفتح الحاء والجيم « الحجَر » وبنى على ذلك ان « الحجر » في القرآن هو « سالع » في العهد القديم . ولما كانت مدينة سالع هذه معروف عنها ماينافي ان اهلها اهلكهم الله بالصيحة ومايدل على انها كانت عامرة بالسكان الى ما بعد الميلاد بقليل اخذوا يطعنون على القرآن الشريف وينسبون اليه الخطأ والجهل بالتاريخ والله يعلم انهم لكاذبون . اذ لولا تسرع هؤلاء الحمقى وجهلهم لعلموا ان الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم غير بترا او سالع وان احداهما تبعد عن الأخرى بعدا عظيما فان الحجر قرية صغيرة على خط سكة الحديد الحجازية الآن الى جنوب دومة الجندل وتنزل بها حجاج الشام وتسمى بمدينة صالح وهو النبي الذي ارسله الله الى اهلها « ثمود » ولا تزال الى الآن آثار مساكنهم التي كانوا ينحتونها في جبالها المسماة « أثالب » كما قال في دائرة المعارف العربية ويمكن لكل احد ان يذهب اليها والى سالع ليرى بعيني راسه أنهما مدينتان متباعدتان في موضعين مختلفين وان المسافة بينهما تقارب مابين الاسكندرية والعقبة وان الحجر في الجنوب الشرقي لسالع . ومعنى الحجر المكان الذي حوله حجارة وهو غير معنى « سالع » أي الصخرة . وما يزعمه بعضهم ان جميع ماتراه فيها من البيوت كانت قبوراً لامساكن لم يقم دليل على صحته كذلك لا يبعد ان بعضها كان كذلك والقرآن لم يقل ان جميعها كانت مساكن ولا ان جميع مساكنهم كانت منحوتة

في الجبال بل قال ان بعض المساكن كانت تبنى على الارض والبعض الآخر ينحت في الجبل كما في سورة الاعراف (٧ : ٧٤ و بوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراوتنحتون الجبال بيوتا — الى قوله — ٧٨ فاخذتهم الرجفة فأصبحوافي دارهم جاثمين) فكانت لهم قبورا بعد اهلاكهم وان لم تكن جميعها كذلك في اول أمرهم. ومن ذلك تعلم خطأ ماقاله المستشرق الشهير مرجليوث في كتابه المسمى (محمد) في هذه المسألة

المسألة الثانية

﴿ الإسراء وتاريخ بيت المقدس ﴾

قال الله تعالى (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) المسجد الحرام هو الحرم المكي والمسجد الأقصى هو بيت المقدس • وهذا البيت كان خربه تيطس الروماني سنة سبعين للميلاد وأحرقه بالنار فلم يكن له وجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا آثاراً وأطلالاً فكيف يقول القرآن الشريف إن النبي أسرى بهاليه ؟ الجواب (١) المسجد في اللغة مكان السجود والعبادة ولا يشترط فيه ان يكون محاطا بالبناء ولا ان تكون سقفه مرفوعة على أعمدة اونحوذلك مما اعتاده الناس الآن وما كانت مساجد العرب في مبدإ الإسلام إلاّ أمكنة بسيطة خالية من الأبنية الضخمة والزخرف والزينة وكل مكان يعبدون الله فيه يسمونه مسجداً لهم بل سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع الأرض مسجدا لصحة العبادة في أي جزء منها فقال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فلا يلزم من قول القرآن إن النبي أسري به إلى المسجد الاقصى انه كان إذ ذاك مبنياً مشيداً كما كان قبل تخريب الرومان له• ولذلك كان العرب يذهبون إلى أورشليم وغيرها من بلاد الشام ويعرفون ما كان عليه المسجد الاقصى من الخراب ومع ذلك لم يسمع من أحد منهم انتقاد على عبارة القرآن الشريف هذه أو تردد في

(١) المنار: راجع ص ٦٩٩ وما بعدها من المجلد السادس

فهما أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم فيها وغاية ما سمع منهم تكذيبه في ذهابه إلى هذا المسجد بهذه السرعة العجيبة لا في وجود ما يسمى عندهم بالمسجد الأقصى وإن كان خربا ٠ على ان الظاهر ان القرآن الشريف يريد بالمسجد الأقصى بلدة (أورشليم) وبالمسجد الحرام بلدة (مكة) اي إنَّ النبي سار ليلاً من مكة إلى أورشليم لأن المسجد الحرام ما كان بيتا للنبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه بل كان نائماً في بيت أم هانيء أحد بيوت مكة كما جاء في الروايات الواردة في هذه المسألة . فالقرآن أطلق هنا المسجد الحرام على مكة وأطلق المسجد الأقصى على أورشليم من باب تسمية الكل بالجزء الذي هو أعظم وأشهر شيء فيه

ومثل هذا الاطلاق شائع في العربية وغيرها وكثير في القرآن الشريف ولذلك ورد فيه تسمية الحرم كله بالبيت العتيق كما في قوله تعالى في الآيات (٢٢:٣٢ لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) مع ان الذبح لا يعمل في نفس البيت وانما يعمل في « منى » بالقرب منه

اما ماورد في بعض الروايات من ان النبي صلى الله عليه وسلم ربط زمام البراق في احدى حلقات بيت المقدس فالاقرب عندي ان هذه الروايات وأمثالها هي مما وضعه الواضعون بعد تعمير بلاد المسلمين لهذا البيت اي بعد فتح عمر لبلاد الشام وإقامة مسجد مكان الهيكل (بيت المقدس) وقد غاب عن هؤلاء الواضعين هذه الحقائق كما هو شأن الكذابين فلم يعرفوا ان مايشاهدونه في زمنهم لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (١)

واعلم ان القرآن الشريف قد ذكر تاريخ بيت المقدس وما لحقه من التخريب فلا يقال اننا فيما قلنا ملفقون أو اننا لاجل دفاعنا عن القرآن ننسب اليه مالم يعرفه ولم يخطر على بال مؤلفه كما يقولون. بل ورد فيه في نفس هذه السورة (الاسراء) بعد الآية السابقة قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الارض مرتين ولتعلنّ علوا كبيرا ٥ فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا) هم بختنصر وقومه الكلدانيون (أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) اليهودية اي

(١) المنار : في ص ٧٠١ م ٦ توجيه لهذه المسألة مبني على صحة الحديث

جالوا وترددوا فيها للنهب والقتل والسلب والسبي والتدمير (وكان وعداً مفعولا ٦ ثم رددنا لكم الكرة عليهم) بأن أرسلنا عليهم كورش ملك فارس فدمر مملكتهم وفتح بابل وانقذ اليهود من أسرهم وا كرم مثواهم وأحسن اليهم وردهم الى بلادهم فصاروا فيها أعزاء وسادوا على اعدائهم الذين تركهم الكلدانيون فيها تحت رعايتهم فعاد الى اليهود شيء كبير من مجدهم السابق ثم عمروا بيت المقدس الذى كان خربه بختنصر وأحرقه وصاروا يقيمون شعائر دينهم فيه كما كانوا يفعلون من قبل (وامددنا كم باموال وبنين وجعلنا كم اكثر نفيرا) فرجعوا من الاسر باشياء كثيرة من الذهب والفضة وبأمتعة وبهائم وتحف وغيرها كما في سفر عزرا (١: ٤ — ١١) (٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة) العقوبة الثانية (بعثنا عليكم عباد لنا ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد) أي بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) فدخله تيطس الروماني بجيشه ونهبه وأحرق الهيكل ودمره تدميراً كما فعل الكلدانيون من قبل وتشتت اليهود بعد ذلك في العالم ولم تعد إليهم الدولة إلى الآن.

وإنما قال القرآن «كما دخلوه أول مرة» مع ان الداخلين المدمرين للمسجد في المرة الثانية غير الذين دمروه في المرة الأولى لأن الجامع بينهم شيء واحد وهو كونهم جميعاً عباداً لله فانه قال في أول القصة «بعثنا عليكم عباداً لنا» بدون ذكر جنسهم. وهذا على حد قولك «دخل الأوربيون الجامع الأزهر مرة ثم دخلوه مرة أخرى» مع أن الداخلين في المرة الثانية قد يكونون انكليزاً وفي الأولى فرنساويين ولاشتراكهم في الوصف (وهو كونهم أوربيين) كان هذا التعبير صحيحاً ومثل ذلك قوله تعالى مخاطباً ليهود العرب (٢:٥٥ وإذ قلتم ياموسي لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) مع أن ذلك لم يحصل لهم وإنما حصل لبني اسرائيل في زمن موسى ولاشتراك يهود العرب معهم في الدين جاز هذا التعبير وهو شائع في جميع اللغات

فما تقدم تعلم ان القرآن الشريف ذكر أن المسجد الأقصى خرّب مرتين وذكر لليهود عقوبتين الأولى ما اوقعه الكلدانيون بهم والثانية ما فعله الرومانيون أما الواقعة الأولى فقد تمت في سنة ٥٨٧ قبل الميلاد وبها زال استقلال اليهود.

وصاروا خاضعين للكلدانيين ثم الفرس ثم اليونان ثم الرومان

وأما الثانية فقد تمت في سنة سبعين بعد الميلاد وبها تشتت اليهود في انحاء العالم وقضي عليهم قضاءً أبدياً

ومن ذلك تعلم ان هاتين الواقعتين يدور حولهما تاريخ الأمة اليهودية وعليهما يقام هيكله فلولا وحي الله لما أمكن لذلك العربي الأمي العامي الناشئ بين الوثنيين أن يستخلصها من تاريخ الامة اليهودية الطويل العريض وليس في بلاده كتب يرجع اليها بل لا يتسير له اذا أراد ولم يقم على تربيته معلم وليس له مدارس ومع ذلك قد لخص هذا التاريخ الكبير في كلمة صغيرة هي نهاية الاعجاز وعبرة العبر وحكمة الحكم مع مافيها من الاشارات الدقيقة إلى الحقائق التاريخية التي يفهمها الراسخون في العلم

هذا وقد كان أسر اليهود الى بابل من اكبر ماحل بهم من المصائب حتى كانوا كل يوم ينتظرون الفرج والخلوص العاجل وقد كان كورش ملك فارس المخلص الاكبر لهم من ذلك وكانوا يسمونه مسيح الرب (أشعياء ٤٥ : ١) فلذا كثر الثناء عليه في كتب العهد القديم لانقاذه اياهم من المحن والبلايا والرزايا التي حلت بهم في بابل التي اطنبت كتبهم في وصفها وتعديدها وانذرهم الانبياء بها قبل وقوعها ثم صاروا يبشرونهم بالخلاص منها . وهذا هو سبب ورود لفظ الخلاص ونحوه كثيرا في كتب العهد القديم ككتاب أشعياء وغيره مما صار النصارى يزعمون أنه رموز إلى المسيح عيسى عليه السلام والحقيقة أنه لاعلاقة لأكثره به ولكنهم ولعوا وولع مؤلفو العهد الجديد بذلك من قبل حتى انهم كانوا ينسبون للمسيح عليه السلام من الحوادث ماينسبون ثم يستشهدون عليها بعبارات في العهد القديم كاستشهاد متى (٢ : ١٥) بكلام هوشع عن خروج بني اسرائيل من مصر (اصحاح ١١:١) وزعمه ان ذلك نبوة عن المسيح عليه السلام وكاستشهاده في الاصحاح ٢٧:٩ بكلام يزعم أن أرميا النبي قاله مع أنه لا وجود له في كتابه وإنما يوجد في كتاب زكريا بعض ألفاظ تشبهه (أصحاح ١١ : ١٣) ولا مناسبة بينها وبين ما يقوله متى في انجيله . وإنما ذكرنا ذلك إبطالاً لدعاويهم العريضة ورداً لكيدهم وتحاملهم

على القرآن الشريف مع الجهل والتعصب كما بيناه ونبينه

ولما أصيب اليهود للمرة الثانية بما أصيبوا به من الرومانيين صاروا يترقبون مجيء مخلص لهم ككورش وهم إلى الآن ينتظرون ذلك ! !

هذا شيء من تاريخ اليهود ذكرناه هنا تفصيلاً لتفسير ما جاء في أول سورة الاسراء ومنه تعلم أن القرآن الشريف ذكر تخريب المسجد الأقصى في المرتين فلا يقال إنه أخطأ وجهل التاريخ كما يدعي جهلة المسيحيين افتياتاً عليه ورغبة منهم في تكذيب حادثة الاسراء وهي كما ترى ليس فيها شيء ينافي العلم أو يناقض حكم العقل الصحيح . وما نشاهده من حركات الأجرام الكونية وما اخترعه البشر من آلات البخار والكهرباء يقرب إلى العقل تصور تلك الحركة السريعة التي حصل بها الاسراء إن كان ذلك جسمانياً كما عليه جمهور المسلمين وأما إن كان روحانياً او رؤيا منامية كما عليه بعضهم فلا شبهة عليه والله أعلم (لها بقية)

باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

٢

بحث النسخ

قال حضرة الدكتور «النسخ هو ابطال حكم لبدل اولغير بدل» واقول ماذكره من تعريف النسخ غير كاف ولا واف فانه غير جامع ولا مانع ولا نطيل بالمناقشة فيما يتعلق بالعبارة اذ مراده بذلك الكلام على النسخ المعروف عند المسلمين وهو صريح في اختياره النسخ بمعناه عند المتأخرين — اما هو في عرف السلف فهو زيادة على ماذكره يعم رفع دلالة العام والمطلق والظاهر إما بتخصيص او تقييد او

حمل على مقيد وتفسيره وتبيينه. قال شيخ الاسلام ابن القيم رحمه الله حتى انهم ليسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد. فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه وبذلك تزول اشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر انتهى ملخصا — وهل الإنساء والنسخ شيء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب بعض السلف الى الاول والظاهر انه اعم من النسخ اما على قول من قال ان معناه التأخير والإرجاء فهو قبل نزوله واوان ظهوره للتكليف لا يوصف بنسخ ولا عدمه

واعلم ايها القاري انه يتفرع على النسخ بمعناه عند الخلف خلاف بينهم هل يجوز نسخه بالآحاد الصحيحة ام ببعضها دون البعض ؟ اما السلف فلا نعلم عنهم خلافا في جوازه

قال حضرة الدكتور فالنسخ عندنا لا يقع الا في الاحكام (الاوامر والنواهي) ولا يقع في القصص او في القضايا العقلية اذ لا معنى لوقوعه في ذلك

واقول اذا سلمنا ان معنى النسخ هو ماذكره المتأخرون حيث قالوا في تعريفه « هو ان يدل على خلاف حكم شرعي دليل شرعي متراخ » فلاشك ان المنسوخ لايجوز ان يكون من الاخبار عن الامور الماضية او الواقعة في الحال اوالاستقبال مما يؤدي نسخه الى كذب اوجهل — بخلاف الاخبار عن حل الشيء او حرمته ونحوها فانه يجوز النسخ في هذا الاخير وكذلك القضايا العقلية لا يجوز النسخ فيها لإفضاء ذلك الى الجهل وكذلك اذا قيد نصا بتأبيد او توقيت فلايجوز نسخه لاستحالة العبث والجهالة

اما اذا فسر النسخ بمعناه عند السلف فلا مانع من وقوعه في كل ما ذكرناه لانهم لم يشترطوا في الناسخ منافاة المنسوخ . ودونك ما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره عنهم بعدقوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها » الآية قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ما ننسخ من آية قال ابن جريج عن مجاهد ما نمحو من آية وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد « ما ننسخ من آية » قال نثبت خطها ونبدل حكمها . حدث به عن اصحاب ابن مسعود رضي الله عنه . وقال ابن ابي حاتم وروي عن ابي العالية ومحمد بن كعب القرظي

نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء اما ماننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن ابي حاتم يعني ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدي ماننسخ من آية نسخها قبضها قال ابن ابي حاتم يعني قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » وقوله « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا » وذكر عن ابن جرير ماموداه اختيار مذهب المتأخرين في تفسير معنى النسخ وانت ترى بعدا بين مافهموه وما فهمه المتأخرون الا ماقل عن اصحاب عبد الله بن مسعود لكنه محمول على ماهو معروف عن السلف من انهم كثيرا مايفسرون الشي ببعض معانيه نظرا لحال السامع تارة ولما يقتضيه المقام تارة ولظهوره في باقي معانيه الاخرى ولم يكونوا ليحدوا الأشياء بالحدود والتعاريف التي اصطلح عليها المتأخرون فاذا كان النسخ عندهم مفسرا بالرفع والقبض الذي هو أعم منه عند المتأخرين فالله جل شأنه ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم الاحكام في جميع انواع الموضوعات والقصص والاخبار للاذعان والاعتبار وردّا على المعاندين الكفار فاذا قامت الحجة وحصل لرسوله صلى الله عليه وسلم الفلج وعليهم الغلبة فالعقل لا يوجب إبقاء الحجة مسطورة مكتوبة كما انه لا يجب ولا يلزم حبس وابقاء الجيش العظيم على البلد بعد فتحها وكما ان الاحكام تختلف باختلاف حال المكلفين كذلك التعاليم الاخلاقية ونحوها تختلف باختلاف أحوالهم أيضاً — فاذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما شاء من اخبار أو غيرها لمقتض ولمصلحة ثم رفعها على مالها من الاجلال فائزة بالنصر وقهر الاعداء غير منقوضة بريب أو تكذيب لاسيما اذا أحل محلها وأنزل بدلها ماهو أنسب وخير منها لنا فياترى أيّ جهل وعبث يلزم فسبحان ربك رب العزّة عما يصفون ؛

ثم قال حضرة الدكتور : فلسنا ممن يسلم القول بنسخ لفظ بلفظ كما يتوهمون أو بنسخ لفظ وابقاء حكمه كما يزعمون. واستدل على ذلك باستلزامه الجهل أو العبث

وأقول هذا الاستبعاد من حضرة الدكتور منشوء عدم الامعان في معاني القرآن لأن الله جل شأنه وعظم سلطانه ذو الكمال وخالق الكمال النسبي وكلتا يديه يمين فهو يعبر لرسوله صلى الله عليه وسلم عن شؤونه بما شاء مما هو كاف في اعجاز مخلوقه القاصر والمعاند

الكافر ولا محذور في ان يرفع عبارة قداعتبر وابدلوها ثم يكررها ثانياً لمقتض في قالب عبارة وألفاظ أكمل من الأولى أو أنسب بالحال منها فانه ما من كال نراه الاوعندالله أكمل منه والكل بالنسبة الينا معجز وكمال كما قال تعالى « نأت بخير منها »

ومما يوضح ذلك ويقر به ماهو واقع في المحكم بين دفتي المصحف من ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة بألفاظ وعبارات متغايرة لفظاً متحدة معنى وقد تراها بزيادة ونقص وما ذلك الا لاختلاف ما يقتضيه الحال لسوقها في الاستشهاد بها ولاختلاف أحوال المتلقين عن رسوله صلى الله عليه وسلم لان منهم من يميل الى التطويل وحفظه ومنهم من يميل الى الاقتصار على الاختصار اما لعدم الفرص أو غير ذلك — فاذ حسن ذكر القصة الواحدة بعبارات وألفاظ متغايرة لفظاً مع بقاء الكل فجوازه كذلك بعد رفع الاول ونسخه أولى واحرى وهذا ظاهر لا غبار عليه — على انه قد يقال لم لا تسلم وتحمل ذلك على ما نزل قبل التحدي بالإعجاز ؟

واذا رفع بالنسخ أو الإنساء ما هو كذا فقد قدمنا الحكمة فيه وسببه واذا بقي محفوظاً لأفراد لا يصح ان يثبت بروايتهم آيات قرآنية فما ذلك الا ليتحقق صدق قوله تعالى « مانسخ من آية أوننسها » الآية وليعرف ان البدل خير من المبدل فيشكروا الله على ما أعطاهم وانظر الى ما روي في الصحيح « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . فانه كان قرآناً يتلى أي ثم رفع وانسي لفظه وإنما بقي محفوظاً لدى من لا يثبت بروايته آيات قرآنية والعلة التي أدركناها في ذلك ما ذكرناه فاذا تتبعنا المصحف وجدنا ماهو أولى وأظهر مثل قوله تعالى « وتحبون المال حباً جماً » الآية — اما مايذكر في آية « الشيخ والشيخة » الى آخره كما في الصحيح وان ذلك كان قرآناً يتلى ثم نسخ لفظه كذا قالوا فلا يبعد ان يقال ان هذا مما نسخ لفظه وحكمه لان الرجم أول مانزل في أول الإسلام ثم نسخ بنزول حد الزاني وحينئذ قال صلى الله عليه وسلم — في حديث عبادة رضي الله عنه « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة والرجم منسوخ — ثم شرع الرجم مرة أخرى لأنه رجم ماعزا والغامدية

بعد ان قال ذلك · انظر ذلك في زاد المعاد لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول: اذا لم يشترط في النسخ المنافاة والمناقضة بين الناسخ والمنسوخ وهو ما يدل عليه كلام عامة السلف وهو ظاهر القرآن حيث جعل متعلق النسخ والإنساء — الآية — ولم يخص بذلك حكمها واذا جاز الإنساء فالنسخ كذلك قال تعالى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

فلا عيب ولا نقص في نسخ ما شاء كيف شاء وسواء في ذلك رفع لفظ بلفظ و رفع لفظ وابقاء حكمه لما تقدم ولانه اذا تفضل بالبدل فهو لا شك يبد له بما هو خير منه لانه اذا وعد بإعطاء احد خيرين فكرمه وكرامته لرسوله صلى الله عليه وسلم تقتضي ان يمن عليه صلى الله عليه وسلم بأفضلهما وأكملها « ولسوف يعطيك ربك فترضى » او يقال نأت بخير منها او مثلها أي المنسية والله اعلم بمراده

فان قيل ما الحكمة في رفع ألفاظ وابدالها بالفاظ او رفع لفظ بعد نزوله؟ قلت قد بينا ذلك فيما تقدم ولكن نحن مهما جهدنا فلا نستطيع ان نعلل ذلك باصح واحكم مما اجاب الله به منكري النسخ بقوله تعالى «نأت بخير منها او مثلها» اي لما كان المنسوخ قبل نسخه مناسبا للمصلحة ومطابقا للحكمة فاذا نسخناه لمقتض فانما هو لنأتي بخير منه اي اكثر مناسبة واشد مطابقة للحكمة

اما ما استدل به حضرة الدكتور وعلل به جواز وقوع النسخ حيث قال والسبب في وقوعه اختلاف حال المكلفين باختلاف الزمان والمكان فما يلائم البشر في زمن طفوليتهم قد لايلائمهم في زمن كهولتهم او شيخوختهم ومثل لذلك باختلاف حالة الانسان بالصحة والمرض — فهذا التعليل للنسخ انما اخذه حضرته عن المتكلمين الذين ادعوا لانفسهم الكمال فوق كل احد حتى انهم قد يدعون لانفسهم انهم يعرفون من الدين مالم يعرفه السلف وانهم قد يصلحون منه مايزعم بعضهم انه ناقص منه ومادرى المساكين ان النقص وصفهم اللازم الذاتي ولله در الشاعر

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

ولو كان لا يكون النسخ في الشرائع الا اذا صار المنسوخ بمنزلة مالايلائم حالة البشر بحيث يكون نسبته اليهم كنسبة مالايناسب حالة المريض لكان ذلك اي النسخ

لا يكون الا بعد احراجهم غاية الاحراج بحيث يكونون قدعانوا ماقرب ان يكون خرج عن حد استطاعتهم وهذا لايجوز من واسع الرحمة فكيف يستقيم قول حضرة الدكتور؟ قدمنا ذلك لتعلم ان النسخ لمقتض او لحكمة لاعيب فيه عند العقل الخ لانه يفهم منه ان ابقاء التكليف وعدم النسخ والحالة هذه جائز عقلا وشرعا والذي يقال ان تأخير النسخ الى تلك الحالة ممتنع عقلا وشرعا لقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والنسخ شرعا هو الذي دل القرآن دلالة الكريم عليه وهو تبديل ذي الخير مما اوحي الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو اكثر خيرا منه — وهو من باب التوسيع فيما كثرت فوائده وعمت عوائده وفيه تنبيه هذه الامة لفتح أبواب المعارف والرقي الى مدارج الكمال والاستعداد لكل ماعسى ان ينجم من خير يقدم او بلاء يهجم

فما ذكره حضرة الدكتور من الحكمة في النسخ ليس هوحكمته نعم هو يقرب و يضارع مانصبه الشارع مسوغا للترخص في المحكم لانه ألزم عباده بامتثال ماشرعه محكما بشروط واسباب مالم تعارض ذلك موانع ورخصات فاذا عرض مانع او مرخص فقد رفع عن العباد الاثم وجاز لهم فعل او ترك مااقتضاه الحال و بذلك قد ينقلب الواجب محرما والمحرم واجبا اوجائزا في حق من قام به مانع والحكم يختلف باختلاف المكلف وتارة يعتبرمع ذلك المكان وتارة الزمان وقديختلف الحكم بالنسبة الى شخص أوأشخاص باختلاف حال مااحتف به من البشر، وبحاله من صغر وكبر، واقامة وسفر، وضعف وقوة، وامن وخوف، وقديختلف بالمواسم تبعا للضرورات، اوتوقعها ولو ظنا في بعض الحالات، وللضرورات احكام تخصها ولهذا صح المثل «عندالضرورات تباح المحظورات » قال تعالى « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » وألحق بذلك ماصح عنه عليه الصلاة والسلام انه قال « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

فاختلاف الحكم باختلاف حال المكلف اوالمكلفين — بحيث لايبقى ملائما لطبائعهم بان تكون نسبته اليهم كنسبة مالا يلائم حالة المريض — لا يصلح ان يكون علة النسخ وحكمته كما عرفت بل هو باق ومعتبر للترخص في الشريعة المحكمة

الثابتة الباقية فكيف يجعل مناطا وسببا للنسخ وقت التشريع لاسيما وقد نص الله في كتابه على سبب النسخ كما قد قدمنا ذلك

ومن تأمل وأمعن النظر فيما ذكرناه اتضح له الحق وعرف منشأ الغلط الذي ارتكبه كثير من جهابذة النقاد والنظار في استبعاد جواز النسخ والتردد فيه وعرف ان منشأه ما أصلوه واصطلحوا عليه مما اوجب لهم الحيرة «وعلى نفسها جنت براقش» وماضيقوه مما وسعه الله فعليهم «لاعلينا»

و بما ذكرناه من التيسير والتوسعة في هذا الدين تظهر بعض حكمة بقاء هذا الدين الى آخر الابد ولزوم انه دين عامة البشر وانه وحي يوحى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه شرع على لسان من لا ينطق عن الهوى. اللهم احينا عليه و به وامتنا متمسكين به ياارحم الراحمين (للكلام بقية)

الجامعة المصرية

﴿ وهبة حسن بك زايد ﴾

نام مشروع هذه المدرسة زمناً طويلاً وشغل الناس عنها ما أصيبت به البلاد من العسرة المالية. ثم اختير للجنة التأسيس الامير أحمد فؤاد باشا رئيساً عاملاً مجد واجتهد مع اللجنة فهب المشروع من نومه حتى تقرر ان تفتح أبواب الجامعة في أواخر هذا العام لتدريس آداب اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وتاريخ مدنية الإسلام

وكان احياء هذا العمل بأمرين لولاهما ما تيسر الشروع فيه (أحدهما) أمر الأمير بأن يخصص للجامعة خمسة آلاف جنيه كل سنة من الأوقاف الخيرية (ثانيهما) تبرع حسن بك زايد من أهل الثراء في مديرية المنوفية بوقف خمسين فداناً وكسور من أطيانه الجيدة على الجامعة

وقد احتفل في السادس عشر من هــذا الشهر بتلاوة الوقفية في داره ببلده فأجاب الدعوة إلى هــذا الاحتفال كثير من الوجهاء وأصحاب الصحف العربية والأفرنجية يتقدمهم الأمير أحمد فؤاد وأعضاء لجنة الجامعة

و بعد أن افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من القرآن الكريم تلا حسين رشدي باشا مدير الأوقاف خطبة للأمير فؤاد باشا رئيس لجنة الجامعة بالنيابة عنه وهي تتضمن الثناء على حسن بك زايد و بيان ان الجامعــة صارت قادرة بعد هبته هذه على الظهور في عالم الوجود ٠

ثم تلا حفني بك ناصف ناموس لجنة الجامعة (سكرتيرها) الوقفية ٠ وقا بعده الدكتور علوي باشا فألقى خطبة في تقدم الأمم بالعلم والحث على التبرع للجامعة. ولا غرو فقد كان الدكتور ممن اكتتب لها بألف جنيه فهو ما قال الا وقد فعل ٠

ثم قام من بعده قاسم بك أمين نائب رئيس اللجنة العامل وألقى خطبة نفيسة أودعها من الفوائد الاجتماعية ما يقتضيه المقام ، وما يناسب الحال العامة بمصر في هــذه الأيام ، ولعلها آخر ما دونه بقلمه من المنشآت الجميلة فقد وافته منيته بعــدها بأيام معدودات ، واننا ننشرها لما فيها من الفائدة وهذا نصها :

أيها السادة

في هذه الايام (١) التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمكاتب والمستشفيات وغير ذلك ولا يمد يديه لمساعدتها ويحمل جزء من مغارمها الاعدد قليل من سكان العاصمة أرى ان عمد البلاد وأعيان الاقاليم هؤلاء الذين يصح أن أسميهم منكوبي المشروعات الخيرية هم أحسن أبناء وطننا ويستحقون ثناء الامة واعجابها ٠

وفي الحقيقة ان كل مشروع قام به الافراد في بلادنا كان الفضل في نجاحه راجعا على الاكثر الى سكان الارياف فانهم وهبوا من الحياء الطبيعي ما يجعلهم يخجلون من رفض أي مساعدة تطلب منهم وعندهم من كرم الاخلاق ما يدفعهم

(١) الظرف متعلق بقوله « أرى ان عمد البلاد » الخ وقوله ولا يمد يديه الخ اعتراض ويوشك ان يكون في الكلام تحريف

الى بذل المال حتى اذا لم يكن في حيازتهم لتعضيد الاعمال النافعة

طبيعة شريفة وكرم جميل وسهولة أخلاق محبوبة ولكن أستسمحكم اذا قلت ان هذه الصفات كانت تفيد اكثر مما أفادت لو كانت الادارة التي تديرها أكثر اعتدالا في حركتها وأكثر تمييزاً في تأدية وظيفتها واذا أردت التوسع أقول ان أهل البر في بلادنا على العموم لا يعرفون كيف يصرفون أموالهم

أيها السادة . ان عمل الخير حسن على كل حال ولكن أحسن منه وضع الخير في محله .

لو كان المحسنون يوجهون ارادتهم الى احياء أمتهم وتعظيم وطنهم اكثر من اهتمامهم بشراء الزهور وتشييد القبور واضاءة الاضرحة — لوكانوا يجودون للاعمال بنسبة الخير المنتظر منها لكانت الجامعة المصرية اليوم كأمثالها في البلاد الاخرى أغنى جمعية في هذا القطر . ولكنها أفقرها جميعاً

من التبرعات الجسيمة التي تحصل سنوياً في هذا القطر على شكل هبة أو وقف من كل هذا المال الذي يصرف في وجوه قليلة النفع او غير نافعة كان نصيب الجامعة شيئاً قليلا لا يذكر

ولولا أن عناية الجناب الخديوي أدركتها ومنحتها مرتبا سنويا قدره خمسة آلاف جنيه لرأينا في هذا العصر الذي تعده الجرائد والخطباء والشعراء مبدأ النهضة الوطنية وتتغنى فيه بمدح الشعور الوطني على نغمة تطرب السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم أيضاً — في هذا العصر الذي نريد ان نجعله حداً فاصلاً بين ماضينا ومستقبلنا ونطلب أن تتحقق فيه أمانينا العزيزة — في هذا العصر لولا ان أدركتها هذه العناية العظيمة لرأينا شيئاً محزنا مخجلا وهو ان أنفع مشروع ظهر في مصر ولد فيها ميتا .

ولكي يكون الاعتراف بالحق تاماً لا استطيع ان امنع نفسي من التصريح بشيء يجتهد دائماً دولة الامير الذي يرأس هذه الحفلة أن يخفيه لشدة تواضعه وهو انه من اليوم الذي قبل فيه أن يشرف لجنة ادارة الجامعة برئاسته لها وصار في مقدمة العاملين فيها تحققنا ان النجاح صار مضموناً .

أيها السادة : إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا أن نقتدي بهم ونهجر القول ونعتمد على العمل

اذا أردنا ان ننفع بلادنا ينبغي علينا قبل كل شيء ان ننظر الى انفسنا ونعرف قيمتنا ونزن قوتنا وندرس اسباب تأخرنا ثم نسعى ونعمل لتحسين حالنا

يجب علينا ان نفهم ان مسألتنا الاجتماعية ليست شيئاً وجد بالصدفة او يتغير بمعجزة بل انها كسائر القضايا العلمية مسألة تحليل وتركيب وان لتكوين ونمو الجمعيات الانسانية أسباباً عديدة ترتبط بالدين والشرائع والاخلاق والاقليم والجنس واللغة وطرق التربية فتغيير الحال الاجتماعية انما يكون بتغيير الاسباب التي اشتركت في تكوينها

فكل ما يكتب ويعمل ويقال في هذا الموضوع هو خير مبارك منتج وما عداه فهو تعب ضائع

أيها السادة : إن من أهمّ اسباب انحطاط الامم وارتقائها طرق التعليم والتربية وإذا نظرنا الى ما يجري عندنا وجدنا ان التعليم الموجود الآن لا يصلح الا لإعداد موظفين او اصحاب فنّ يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التي لا يستغنى عنها كالطب والهندسة والمحاماة وهذا التعليم يوزع في مدارسنا على الطلبة بمقدار معلوم لا يزيد عن الغاية التي وضع لاجلها

تلك هي خطة الحكومة في التعليم وقد حذا حذوها اصحاب المدارس الخصوصية والحكومة تعترف بأن هذا القدر من التعليم غير كاف ولكنها اضطرت الى عدم التوسع فيه للاسباب التي شرحتها في تقاريرها العديدة وأهمها كما تعلمون هي مسألة المال

وفي الحقيقة انه لا توجد حكومة في العالم تستطيع أن تتولى بنفسها أمر التعليم العام بجميع فروعه ودرجاته واذا نظرنا الى ما يجري في البلاد المتمدنة نجد ان القسم الاعظم من التعليم في يد جمعيات علمية هي المؤسسة والمديرة لنظامه وان عمل الحكومة فيها محصور في تعضيدها ومساعدتها على قدر الامكان

هذا هو الذي حمل الحكومة المصرية على استنهاض همة الاهالي لنشر التعليم الابتدائي وهذا ما دعانا أيضا الى ان نطالب من أبناء وطننا ان يفكروا في نشر التعليم العالي وان يبذلوا ما في وسعهم في سبيله ليكمل نظام التعليم في بلادنا ويصبح وافياً بجميع حاجات الامة

ايها السادة : نحن لا يمكننا ان نكتفي الآن بان يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة بل نطمع ان نرى بين ابناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول. فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم. نود ان نرى من ابناء مصر كما نرى في البلاد الاخرى عالماً يحيط بكل العلم الانساني واختصاصياً أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به. وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة . وكاتباً ذاع صيته في العالم . وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

أيها السادة : اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد انهم يعملون على مبدإ « اكسب كثيرا واتعب قليلا » ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذي تحتل شهوة العمل في قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبها. وانما نجد افراداً قليلين جداً يصرفون وقتا قصيراً من حين إلى حين لتكميل معارفهم ولكنهم مجردون عن تلك الحمية تلك النار التي تشعل القلب والشعور والتي بدونها لا تبحث النفس عن تجديد العمل ولا تطلب الارتقاء إلى المراتب السامية

ألا يظهر لكم مثلي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لإحساسه وان أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون في

مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغا أو عالماً حكيماً أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً

أيها السادة : ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر في إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا حتى في الأشياء التي بطبيعتها يجب ان تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب . وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيراً محسوساً إلا إذا تم اصلاح العائلة المصرية

هل يجوز أن يؤخذ من اعترافنا هذا اننا نخشى أن الجامعة المصرية إذا فتحت أبوابها لا تجد طلاباً للعلم ؟ سمعت هذا الاعتراض واعتقادي التام انه وهم باطل. نحن اذا كنا نأسف لعدم بلوغ حب التعلم الدرجة التي تمناها له فليس معنى ذلك أنه مفقود في بلادنا . حب التعليم موجود ووجد في بلادنا من قديم الزمان ولا يزول عن أرضنا أبداً ! وتاريخ مصر الحديث يثبت بأقوى البراهين أن حب التعليم كان ولا يزال ينمو في نفوس أمتنا من عهد المرحوم محمد علي باشا إلى الآن

ولي أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سبباً في ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التي نلاحظها فيها الآن الا انذار مطمن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميداناً تتصرف فيه لتتمتع بالتوازن الملازم لصحتها

هذا هو البناء الفخيم الذي نحب أن الأمة المصرية تشيده بيدها ليبقى أثرا خالداً في هذا القطر وشاهداً على حسن استعدادها للنمو العقلي والرقي الأدبي فكل من وضع حجراً في هذا البناء يخدم أمته أجل خدمة . فشكراً للسابقين وشكراً للاحقين في هذا العمل الصالح . واني أرى في الصف الأول من صفوف المحسنين المتبصرين الذين يعرفون كيف يصرفون أموالهم في سبيل الخير رجلين قاما بما يجب عليهما وهما حضرة أحمد بك الشريف وصاحب هذه الدار الكريمة اهـ

باب الأخبار والآراء

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلق كثير فيخلفهم مثلهم فتمسي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحداً . ولكن في الناس أفراداً امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم فأولئك اذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أمتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ولا يعمل عمله سواه . ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهلية ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ومؤلف كتابي « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » — اغتالته المنية فجأة (في ٢١ من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سقم بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عدته ، ويأخذوا للمصاب أهبته ، بتوطين النفس على الصبر ، وتوجيه قواها الى الجلد أو التجلد ،

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها

امتاز باستقلال الفكر وجودة الرأي وصفاء الذهن وسعة الخيال وقوة الإرادة والعدل في الحكم والوفاء في الصداقة والإخلاص للبلاد وكان مع هذا من علماء الحقوق والاخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية وقد وجه همته في السنين الاخيرة الى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن فلم يكتف بكتابيه فيه بل جعله همه الأكبر الى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة فرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو ساعتين

كان قاسم بك أمين يعد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يعد رجالها على الانامل وهم أصدقاء بعضهم لبعض ، مات إمامهم وكبيرهم فكر

أكثرهم على أثره : مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية القضاء والمحاكم الأهلية فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية ، وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثنيان ، بعد البدء الذي هو الاستاذ الإمام ، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غرو اذا تفاقم بالرزيئة به الخطب ، وعظم على البلاد به الكرب ، فانه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام ، ان الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال ، فللأمة ان تتمثل اليوم بقول ابن النبيه :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول ان هذا البيت من الشعريات ، وصرنا نقول اليوم انه من المشاهدات ، ولا ننسى ان مصر فقدت أيضاً في هذه المدة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر وابراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخر عمره منسياً لحيلولة المرض بينه وبين العمل وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضاً فيا لله ما كان أشأم فقده على هذه البلاد فقد ذكرني بما تتابع بعده من فقد خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)

كمل للأستاذ الامام قوة الفكر والنظر ، مع القدرة والمرانة على القول والعمل ، وكان حسن عاصم أقوى في العمل ، منه (اي من نفسه) في القول والنظر ، وأما قاسم أمين فكان نظرياً أكثر مما كان عملياً ، فكان يسبح في بحر لجي من الفكر ، ويطير في جو واسع من الخيال ، فيؤلف بين الحكم العقلية ، وبين التخيلات الشعرية ، فلهذا كان لمكتوبه من التأثير وقوة الجاذبية ما جعله في مقدمة كتاب العربية ، على قلة اشتغاله بفنونها ، وتحصيله لها ، وما ذاك إلا ان كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه ، ومعناه يفيض الجمال على صورته ، حتى كاد يكون فكراً مجرداً ، أو خيالا متوهما ،

كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي فكان ذلك يرفعه أحياناً عن عالم المادة وما فيه النصب واللغوب والمصائب في المال والولد والصديق فيهون عليه

ما أصابه من ذلك ويفيض عليه الجلد والصبر ، ويخيل لي ان لو طال عمره ، وقل عمله ، واستراح باله ، لا نتهى أمره بفلسفة عالية تظهر على لسانه ، وتفيض من قلمه ، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة ، في غلائل من الشعريات الجميلة ، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر ، من تربية الشعور والفكر ،

على ان مافي هذه الطريقة من الخطإ في الحكم قد يعسر انتزاعه ممن تمكن فيه فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان ، اتحاداً يقل أن يفيد معه البرهان ، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان ، ومستقبل الانسان ، تعد عند المنطقي من الخياليات ، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات ،

كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولين ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل ، أما العمل الذي كان يتوق اليه ، ويتمنى لو يتيسر له ، فهو ان يؤسس ولو بماله — ان وجد المال — مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى انه يرقي هذه البلاد ،

كان قاسم كنزاً مخفيا لا يعرفه الا اصدقاؤه وكان اول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق دركور فيما كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية فرد عليه قاسم باللغة الفرنسية وقد ذكر لنا غير واحد ان عبارته في رده كانت كعبارة كتاب فرنسا البلغاء . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة وقد بين فيه ماللحجاب من الفائدة وشنع على مافي اوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الاعراض

واخبرني قاسم انه كان يوم اطلع على ما كتبه الدوق دركور غافلا عن حال النساء بمصر فالمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة و بعدأن شفى غيظه وارضى غيرته بذلك عادالى نفسه وفكر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك الى درس هذه المسألة قائلا في نفسه انه لا ينفعنا اذا كان العيب فينا ان نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته . وطفق يبحث ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء

وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هز مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظه وتقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا الى التصنيف في الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعدّ من المصلحين الاجتماعيين

ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه فكان دون كتاب تحرير المرأة مادة وفائدة وتحريراً وتأثيراً على انه فوقه صراحة في المقصد وحرية في القول المخالف لرأي الجمهور وميله

وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عمره الاشتغال بتأسيس «الجامعة المصرية» فلم يدخر وسعا ، ولم يأل جهداً ، وكان مناط الأمل ، في إنجاح هذا العمل ، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عند ما يتم استعدادهم ، ويكمل رشادهم ، وتعرف الناس قيمتهم ، ويشرعون في الاعمال الكبيرة ، التي يرجى نهوضهم بها ، وينتظر نجاحهم فيها ؟ ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم

حزن العقلاء على قاسم لذاته وما تحلت به ذاته من المزايا العالية ، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال ، وما يرقي الامة من الأعمال ، وضاعفه مرة أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم ، وأنشأت الناشئة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل

يموت الرجل فيبكيه الاهل ويندبه النساء ولكن قاسماً أبكى عظماء الرجال ، وأقدرهم على التجلد والاحتمال ، وندبه مثل سعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وإنما ارادا ان يؤبناه فكان تأبينهما ندبا وتعدادا ، وبكاء ونشيجا ، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين ، وذلك مالم يعهد لسواه من الميتين

وجملة القول فيه انه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الامام من أنه لايوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه ،

مصافحة السوريين للمصريين

يوجد في مصر الأوربي من انكليزي وفرنسي الخ والأمريكي والهندي والفارسي والارمني والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي والعثماني من تركي وكردي وعربي ومن العرب الحضرمي واليمني والحجازي والعراقي والسوري ٠ ولم نر صنفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من الأصناف أقرب إلى المصري من السوري فهو جار له في بلاده وموافق له في لغته وأكثر عاداته مع كونه عثمانياً مثله ولكننا على هذا كله لم نر المصري في مناظرة أو منافسة مع صنف من أصناف البشر الذين تضمهم بلاد مصر إلا مع السوري فما هو سبب ذلك ؟

يرى من دقق النظر أن السبب في هذا هو ذلك القرب نفسه فان السوري لما كان صنول المصري امتزج به امتزاج الماء بالراح وشاركه في عامة شؤونه من مأكله ومشربه ولهوه وجده وهزله فما من سوري في هذا القطر إلا وله من الأصدقاء المصريين مثل ماله من السوريين أو أكثر. ومن طبيعة المنافسة ان تكون بين الخلطاء مالا تكون بين البعداء فالأفراد ينافسون اخوتهم وأقاربهم وجيرانهم ، وأهل البلد ينافسون أقرب البلاد اليهم وكذلك أهل المديريات فأهل الأقطار فأهل الممالك

قد كانت المنافسة الأولى بين المصريين والسوريين في أعمال الحكومة ثم ضعفت أو تلاشت وخلفتها المنافسة في الصحافة أو السياسة ٠ كانت بين المقطم والمؤيد ثم بين المقطم واللواء. وحقيقة هذه المنافسة انها منافسة أفراد لا أصناف اذ رأي المقطم في السياسة ليس هو رأي السوريين وإنما هو رأي أصحابه وأول من قارعهم فيه صاحب جريدة الاهرام من السوريين ٠ ولكن اللواء كان يردعليهم من حيث انهم سوريون ودخلاء فكان ذلك من قبيل تعليق الحكم بالمشتق وهو كما قال علماء الاصول يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ٠ أعني ان رد اللواء على أصحاب المقطم من حيث هم منسوبون إلى سوريا ودخلاء في مصر يفيد أن علة

ما يرميهم به من خيانة مصر هو كونهم سوريين . فلو كان الامر كما يدعي — وهو ليس كذلك — لكان كل سوري خائنا لمصر او لكان مجموع السوريين كذلك . وهذا باطل لانه مبني على اصل باطل ولكنه سرى في اوهام كثير من الناس لا سيما الاغرار . وهذا ما عناه حافظ بقوله

لولا اناس تغالوا في سياستهم　　منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

ونحمد الله ان كلا من المقطم واللواء اللذين يعنيهما حافظ قد رجع — مع اصراره على أنه كان حسن النية — عن الخطة التي كانت تعدغلوا وكادت تجعل المنافسة بين جريدتين سببا للتعادي بين شعبين كل منهما صنو للآخر وشريك له في كل مقومات الحياة حتى أوشك ان يصدق في ذلك ما قيل من ان سوء التفاهم كثيراً ما يكون اضر من سوء القصد

لقد حسن في هذه الفرصة ماقام به سليم افندي سركيس من تأليف جمعية من خيار السوريين علما وأدبا وجمع طائفة من النقود منهم ومن غيرهم من السوريين بالاكتتاب لاجل دعوة جماعة من خيار المصريين علما وأدبا الى الاحتفال باسم السوريين لاكرام حافظ افندي ابراهيم الشاعر المصري الشهير

ولما كان الغرض من هذه الحفلة موادة السوريين للمصريين كانت الخطب والقصائد التي اشرنا اليها في الجزء الماضي ممثلة لذلك احسن تمثيل وقد وقع ذلك موقعه الذي يستحقه فأثنت الصحافة المصرية كلها كالصحف السورية على سليم افندي سركيس وأيدت الغرض من الاحتفال بالكلم الطيب في التأليف بين العنصرين اللذين هما بمنزلة الاخوين

(تصحيح غلط) في السطر ١٦ من ص ١٢٤ «، وعن» محله قبل كلمة «غمغمة» بينها و بين الواو فتصير « ، وعن غمغمة » قضاعة الخ وفي السطر الخامس من ص ١٢٥ من الجزء الماضي «عدوه غريبا » وقد سقط من قبلها هذه الجملة « عدوه فصيحا وما كان قليل الدوران على ألسنتهم » . وفي هذا الجزء أغلاط مطبعية أخرى مدركة ككلمة «محمده » في س ١٧ ص ٩٣ وصوابه « محمد عبده » ومنها كلمة « اذا » في س ٣ ص ١٠١ وصوابها « إذ »

الفصل الرابع (*)

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجلّ ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهنّ على الحياة (١٦ : ٥٨ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمقى واولو الألباب ، وفيها القساة وأهل المرحمة. فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(*) من رواية خديجة ام المؤمنين

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمنهن بنفقة تساويهن بأترابهن، من ذوي قرباهن اوجوارهن، فيرون مواراتهن فى التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا خيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هى كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولو قدّ من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يدمن لا يرعى لهولها حرمة. ولو قضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء مازيّن لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكرا في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء مايحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له مايقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان وشمر أقصى درجات الخسران لرأي انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب، من غير ماطلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة او ان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل مالهنّ من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حطّ اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد النيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*)
فقالت يا أبت الاول سيّد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد إبائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأنبرتْ ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد .
وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه » فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم
فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والرزانة منهنّ
ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمور العمومية، وناهيك أن الحرب التي ظلّت مستعرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المرّي وأراد ان يدخل عليها قالت أتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت « اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليّ » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

وحسبك من اشتهرن من العربيات في السياسية منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي . وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لاخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة   يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه   واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (*)   علم الهدى ومنارة الايمان
فقُدِ الجيوش وسر أمام لوائه   قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس، وبتر الذنب ،فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت «صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به   كانه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد، ولأمورهم

(*) اخوة الدين

مقلّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا نزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فاما عزلته فشكرناك، واما لا فعرفناك» فقال معاوية «إياي تهددين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك» فسكتت ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال: ومن ذلك: قالت: علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى: قال ما أرى عليك منه أثراً قالت: بلى أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال «اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك» ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه «بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام» قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت «ألي خاصة ام لقومي عامة» فقال «ما

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والاّ يسعني ما يسع قومي » قال ا كتبوا لها بحاجتها .

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاصي ومروان وسعيد بن العاصي فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر » فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال «مرحباً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟قالت يا أمير المؤمنين «مات الرأس وبتر الذنب، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر» قال لها أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت «لا والله لا احفظه» قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه» قالت «احسن الله شارتك وأدام سلامتك، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه» قال« أو يسرك ذلك ؟» قالت« نعم والله » فقال «والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميراً أعنتُ عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبة » قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش،
ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك
لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني، وواليته وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم
يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية،
وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر، وطلبتك ما ليس لك بالحق،
وواليت عليا على حبه المساكين، وإعظامه لاهل الدين، وعاديتك على سفكك
الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى » ثم قال لها: ياهذه هل رأيت عليا؟
قالت « أي والله » قال فكيف رأيته؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك
ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان
يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست » قال صدقت فهل لك
من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها قالت
« أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح
بها بين العشائر » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي
طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما
أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرةً واحدةً من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت
عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية من أخوات سيدتنا القرشية، وهكذا
كان حظهن من الفصاحة والحصافة، ومبلغهن من المشاركة في الامور
العمومية والاخذ بالاسباب، والمشايعة لبعض الاحزاب، وما أتينا الا
باليسير توطئةً لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها